

محمد عيسى الشرقاوى

الحرية وأخواتها

قرا

سلسلة ثقافية شهرية



٦٩٢
الرقم العام
١

اقرأ

[٥٨٢]

الحرية وأخواتها



محمد عيسى الشرقاوى

الحرية وأضوائها



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة
ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ،
هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ،
لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب
العريية . وأن يتفعوا ، وأن تدعوهم
هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ،
والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب
من الحياة العقلية التى نعيشها .

طه حسين

الاهتداء

إلى أمي . .

لم تقرئي يوماً . . حروف الكلمات . .

لكنك كنت دوماً . . تقرئين كتاب الدنيا .

سطوره . . كم كانت مؤلة ومضنية . .

لكنك كنت أبداً . . صامدة مستبشرة .

« يسرا » . . و « داليا » . . يقرآنك السلام . .

محمد



مقدمة

مشاهد من زمن التحولات الكبرى

لم تشهد الدنيا فيضاً غامراً من الأحداث التاريخية الكبرى .. مثلما تشهد منذ انهيار سور برلين في ٩ نوفمبر ١٩٨٩ وحتى الآن .. فدراما التحولات الكبرى العاصفة للعالم لم يسدل عليها الستار بعد ..

لقد كان سقوط سور برلين تحت وطأة أقدام الجماهير الغاضبة الضمائي للحرية مشهداً تاريخياً مثيراً .. كان إرهاباً باتت حار النظام الشيوعي وإيداناً بانهيائه .. ليس في دول أوروبا الشرقية وحدها ، وإنما في عقر داره بالاتحاد السوفيتي .

مقدمات هذه الدراما الصاخبة بدأت في أبريل من عام ١٩٨٥ .. وقتها تولى ميخائيل جورباتشوف السلطة في موسكو . وقد راودته فكرة جسورة .. أن يجدد شباب النظام السوفيتي . وأن يضيف لمسات إنسانية على وجه الشيوعية حتى تختفي وراء قناع التجميل تجاعيدها الفكرية المخيفة ، كان يسعى للإفلات بالنظام من خندق الركود الاقتصادي للممر ، ولذلك طرح فكرة المصارحة (الجلاسونست) وإعادة البناء (البيروسترويكام) ، كان يطمح إلى حشد المثقفين والجماهير في صفوف مسيرته الإصلاحية الجديدة .

لكن المخاطرة التي لم يقدر لها « جورباتشوف » حساباً هي أن الجماهير انطلقت من إसार الماضي على أجنحة الحرية الجديدة .. وحلقت إلى مدى أبعد كثيراً مما خطط له ، لقد تفجرت في كافة أنحاء الإمبراطورية حملة انتقادات شعبية وقومية عنيفة . ضد النظام القائم ، وضد « جورباتشوف » شخصياً بسبب الإخفاق في توفير سبل المعيشة الأساسية .. وسرعان ما اقترن الغضب على فشل المشروع الاقتصادي السوفيتي .. بتفجر المشاعر القومية ومطالبة الجمهوريات بالاستقلال .

في ذلك الوقت العصيب ، بدأت العناصر المتشددة من الشيوعيين تجمع صفوفها .. وتعرب عن غضبها من سياسات « جورباتشوف » الإصلاحية والديمقراطية .. بينما انفرط عقد القوى الإصلاحية والليبرالية المساندة له .. بدعوى أنه يتباطأ في تنفيذ إصلاحاته السياسية والاقتصادية .. وقد تمخض هذا الوضع عن تراجع « جورباتشوف » خطوة وربما خطوتين إلى الوراء .. لقد ارتدى في أحضان المتشددين وخاصة عندما تصاعدت الحركات القومية مطالبة باستقلال الجمهوريات .

ولم يكن ثمة حل وسط للخروج من هذا المأزق سوى إرضاء هذه الحركات من ناحية ، والاحتفاظ بصيغة وحدوية فضفاضة للاتحاد السوفيتي من ناحية أخرى ، ولذلك تم الاتفاق على توقيع اتفاقية اتحادية جديدة تقلص نفوذ موسكو وهيمتها القديمة على الجمهوريات .

وعشية يوم توقيع الاتفاقية .. وقع الانقلاب الفاشل ضد جورباتشوف في ١٩ أغسطس ١٩٩١ ، ولما كان اليوم الثالث فشل الانقلاب .. وعاد

جورباتشوف إلى السلطة .. غير أن الاتحاد السوفيتي لم يعد مثلما كان ،
لقد تسارعت حركة إعلان استقلال الجمهوريات وبدأت عملية تفكك
الإمبراطورية وانهيارها .. ثم صدر مرسوم « موت الاتحاد السوفيتي »
في ٨ ديسمبر ١٩٩١ .. وهو المعروف باسم « بيان مينسك » الذي
أعلن قيام « الكومنولث الجديد للدول المستقلة » .. ثم تلاحت
الأحداث وقدم جورباتشوف استقالته في ٢٥ ديسمبر ١٩٩١ ، ونزل
العلم السوفيتي من فوق سارية الكرملين بعد أن ظل يرفرف فوقها منذ
عام ١٩٢٢ .. ورفعوا بدلاً منه علم روسيا القديم .

هذا المشهد السوفيتي الأخير .. يعنى أن واشنطن تقف وحدها الآن
فوق قمة العالم .. ويعنى أن الشمولية اندحرت .. وأن الليبرالية ترفع
أعلامها .. لكن دراما التاريخ لم تكف عن الحركة .. ولن يسدل عليها
ستار النهاية رغم هذا المشهد .

* * *

المشهد السوفيتي الأخير كان لحظة كونية كبرى .. انعكاساته شملت
الدنيا كلها .. تأثيراته لم تقتصر على دول أوروبا الشرقية التي تحررت وإنما
امتدت إلى دول أوروبا الغربية ذاتها .. فتوحدت ألمانيا .. وبدأت ظاهرة
سياسية كابوسية مروعة تطفو على سطح الأحداث في دول الغرب ..
هى عودة رموز شرسة للفاشية والنازية .. تطل الآن بوجهها القبيح ..
تثير الصخب والجدل حيناً ، وتفجر المخاوف والهواجس فى كل حين .
وعندما يقترب ظهورها بحالة من الركود الاقتصادى لم تشهد هذه

البلاد منذ عهد الركود الكبير فى الثلاثينيات من هذا القرن .. فإن هذه الأوضاع القائمة تطرح تساؤلات معتمدة عن الأيام القادمة .

يزداد إلحاح التساؤلات نظرًا لأن الوضع السياسى الدولى فى حالة سيولة لم تتضح معالمه الجديدة بعد ، برغم انفراد أمريكا بقمة العالم .. ذلك أن مصطلح النظام الدولى الجديد لم يزل فضفاضًا يكتشفه الغموض .. لم تبلور معالمه ، ولم تتضح أبعاده : هل يكفى للدلالة على ذلك أن واشنطن لا يعينها فيما يبدو من أمر هذا النظام فى المستقبل المنظور سوى تصفية من تتصور أنهم أعداء انتصارها .. وانفرادها بالقمة .. ريتشارد تشينى وزير الدفاع الأمريكى (فى عهد الرئيس بوش) يقول : واشنطن لم تعد تعرف عدوها الجديد بعد انهيار الاتحاد السوفيتى !!

* * *

المشهد السوفيتى لم تقتصر تأثيراته على أوروبا .. لقد توغلت انعكاساته حتى أفريقيا .. القارة السوداء التى شهدت ساحاتها تصاعد الصراع الاستراتيجى بين موسكو وواشنطن .. خرجت من أتون الحرب الباردة مشخنة بالجراح الاقتصادية والسياسية .. وهى تضمد الآن جراحها .. وتحاول شعوبها اللحاق بقاطرة الديمقراطية .. لقد أهدر زعماء القارة أكثر من ثلاثين عاما من استقلالها .. منذ موجة الاستقلال الأولى عام ١٩٦٠ وحتى الآن .. لقد رفعوا أعلام الحزب الواحد الذى أفرخ الديكتاتورية والطغيان السياسى ، وأهدر فرص التنمية الاقتصادية .. ونثر فى تربتها بذور الفساد والإفساد ..

* * *

معذرة .. كان لابد من هذه المقدمة عليها تجمع خيوط المشاهد المتناثرة على الصفحات القادمة .. مشاهد اخترتها من بين ما نشرته في صحيفة « الأهرام » - اعتباراً من ٤ نوفمبر ١٩٨٩ - في باب صغير أسبوعي باسم « حكاية سياسية » .. وكانت المصادفة التاريخية وحدها هي التي جعلت ظهور « حكاية سياسية » .. يقترن بعاصفة التحولات الكبرى .. وحاولت كصحفي أن أرقبها .. أن أطرح مجرد رؤية من حولها .

حاولت أن أستبصر بآراء ومواقف مفكرين وكتاب هم كوكبة زمانهم وكل زمان .. لكن عندما كان قيظ الأحداث يشتد من حولي كنت ألتبس الرأي عند رواد وأئمة عصر التنوير المصرى والعربى .. كنت ولازلت أحاول أن أمسك بطرف من فكر رائدنا ومعلمنا العظيم « رفاة رافع الطهطاوى » .. كنت ولازلت أسعى للاقتراب من سيرة ومسيرة الناثر والكاآب المصرى العظيم « عبد الله النديم » .. إمام الوطنية فى أرقى تجلياتها .

رفاعة .. رغم بعد الزمان .. كان يرقب بفكره الثاقب التحولات الكبرى .. كان ولا يزال يبشر بالحرية والديمقراطية والعدل .. ابتدع أرقى صيغة حضارية لعقد قرآن سعيد بين الأصالة والمعاصرة رفاعة .. يقول لكم .. لسنا غرباء عن هذا الزمن وتحولاته الكبرى .. ولن نكون ..

الجيزة - ٢٥ أبريل ١٩٩٢

محمد عيسى الشرقاوى

رفاعة .. يقول لكم !

العدل أساس العمران !

شاب فى مقتبل عمره سافر إلى باريس .. جلس ذات يوم على مقهى يحتسى الشاى .. أثار انتباهه أن الجالسین من حوله لا يثرثرون وإنما يقرأون صحفا لم يعهدوا فى بلاده .. استبدت به الدهشة عندما دخل المسرح فوجد « أن التياترو عندهم كالمدرسة العامة يتعلم فيه العالم والجاهل » .. محراب للتوير .. لاقاعة للخلاعة ودغدغة غرائز السفهاء الجدد .

لكنه لم يذهب إلى هناك لارتیاد المقاهى والمسارح ، وإنما لمهمة أخرى .. كان أمام البعثة المصرية إلى مدينة النور .. منذ أبحرت به السفينة من شاطئ الأسكندرية .. عقد العزم على اكتشاف الحضارة الجديدة .. تعلم لغتها .. انكب على دراسة كتبها .. ترجم منها ما استطاع إليه سبيلا .. وسجل يوميات ثورة أهل باريس على الحكم المطلق عام ١٨٣٠ فى كتابه الهام « تخليص الأبريز فى تلخيص باريز » .

عندما عاد إلى بر مصر .. عقد أواصر مصالحة حضارية كبرى فى

عصره بين أصالة تراثه العظيم ومعاصرة الأفكار الأوروبية الجديدة ..
قطبًا عظيمًا كان فى حركة التنوير .. إمامها .. مؤسس الثقافة المصرية
الحديثة .. وأول رئيس تحرير لأول صحيفة مصرية هى « الوقائع » ..
الزمن المصرى وقتها كان يستمع فى إجلال وخشوع لرفاعة رافع
الطهطاوى .. فتى الأزهر النابغة .. رفع لواء الديمقراطية والعلم .. وأكد
ضرورة الإخاء والمساواة .. يقول « العدل والإنصاف من أسباب تعمير
الممالك وراحة العباد » .

عندما بدأ عصر الظلمات أبان حكم عباس الأول .. نفوا الطهطاوى
إلى السودان .. أغلقوا مدرسة الألسن التى كان مديرًا لها .. لم يعد إلا فى
عهد إسماعيل .. واصل ما انقطع من رسالته .. وكتب كتابه العظيم
« مناهج الألباب فى مباحج الآداب العصرية » .. كان يشر العباد بالتغيير
السياسى والاجتماعى .. رفاعة ظل طوال ٧٣ عامًا هى عمره يحلم بالغد
الجميل » ..

لم تبرح خياله سنواته الخمس فى باريس ... بوابة الحضارة إلى الدنيا
الجديدة .. تحت هذه البوابة تواصل الماضى بالحاضر .. عبرتها من بعده
كوكبة من المصريين اللامعين النابهين .. يزقزق فوق أعمدتها الرخامية
البیضاء « عصفور من الشرق » أطلقه « توفيق الحكيم » .. أما « طه
حسين » فله معها قصة فريدة ..

لكن مياهها كثيرة تدفقت فى نهر السين منذ ذلك الزمن البعيد ..
باريس عاصمة النور تطير فى سماء سياستها الآن خفافيش الظلام

والإظلام .. « جان مارى لوين » يشير باغتيال الحضارة .. فوزه فى
لانتخابات المخلية الأخيرة « يعمد » الأحزاب والتيارات النازية والفاشية
فى أوروبا كلها .. البرابرة الجدد يخاصمون الإخاء والمساواة والحرية ..
« رفاة » .. يا معلمنا العظيم .. المخاوف جمّة .. والخطر
جسيم .. الخفافيش تهاجم بالليل ولا تخشى النهار .. السفهاء يفترون
البراءة دون خوف أو وجل ..

رفاعة يقول ... الكرب لن يطول .. افتحوا كتب عصر التنوير ..
فلا عاصم لكم اليوم من طوفان الأحزان سوى أن تؤمنوا بالبداهيات ..
« العدل أساس العمران » .. هذه كانت كلماتى إليكم .. طوق نجاتكم
من التيه والظلمات ..

النديم .. والوطن الجميل !!

منذ كان صبيا اشتد ولعه بالشعر .. أدركته حرفة الأدب مبكراً ..
أورثته داء التمرد النبيل على الواقع .. خلق في أجواء الخيال مع رؤى
نورانية لوطن جميل .. لم يقبع في داره يتعاطى مفردات علمه الأسطوري
الجديد ... وإنما خرج إلى الطرقات شاهراً حروف الكلمات ... كابد
شظف العيش .. لكنه لم يرجع أو يتراجع .. يتربع الآن .. في قلب
الوجدان المصرى .

أبوه اسمه « مصباح » .. خبازاً كان فى الأسكندرية .. نشأ ابنه
عبد الله الذى اشتهر باسم « النديم » فى حى المنشية .. اختزنت مخيلة
الفتى هموم الناس البسطاء ... أدرك أن التعليم والخلق القويم هما السبيل
إلى رفعة الأوطان .. لذلك أسس أول ما أسس جمعية خيرية لتعليم
الأطفال .. لكن زبانية السلطان تحرشوا به عندما رأوا أنه تجاوز
حدوده .. لقد كان ينتقد رموز السلطة ...

تفتق ذهنه العبقري عن فكرة لامعة .. أصدر مجلة أسبوعية بدعية
ورائعة أسماها « التنكيت والتبكيك » .. هى عنده امتداد لدور المدرسة ..
أما رسالتها فأعم وأشمل .. لعلها كانت أول صحيفة شعبية ... فقد
حرص « عبد الله النديم » فى حذق ومهارة على أن يجعل مقالاتها
وأخبارها ضرباً من التنكيت والتبكيك حتى يحقق المراد من إصلاح
العباد .. كان يقول : « إن هجوها تنكيت ، ومدحها تبكيك » وقد

أرق ما كان ينشره أبالسة السلطان .. فكادوا له .. لكنه تصدى لهم بعنف وضراوة .. انتقل من الرمز إلى الجهر ..

وفي ذلك الزمن البعيد من سنة ١٨٨١ كانت صحيفة بريطانية للتنكيث فقط قد مضى على صدورها حوالى ٤٠ عاما وقد امتد بها العمر حتى المائة والخمسين ... لكنها لفظت أنفاسها منذ أيام .. عندما انفض القراء من حولها وأصبحت خسائرها المالية جسيمة .. كان اسمها « بانش » ..

أما مجلة النديم ... فكان لها قصة أخرى فقبل أقل من عام على إصدارها فى الأسكندرية ... انتقل بها إلى القاهرة لكنه فطن إلى أن زمن التنكيث والتبكيث قد انتهى .. وأن الوطن مقبل على حوادث جسام .. فالثورة العرابية تتحرك أحداثها .. والصدام قادم بين أحمد عرابي وبين القصر والغزاة الأنجليز .. لذلك غير اسم صحيفته إلى « الطائف » ..

« الطائف » كانت لسان حال الثورة ... وقد اختفت عندما فشلت واختفى معها صاحبها .. النديم .. ظل ٩ سنوات مطاردًا وهاربًا .. برع فى فن التخفى والتكر .. عندما وقع فى أيديهم نفوه إلى يافا فى فلسطين عاد بعد أن أصدروا عفوًا عنه .. لم يسكن إلى الراحة .. واصل رسالته الكبرى فى التنوير والتعليم والوطنية ... أصدر صحيفته الشهيرة « الأستاذ » كدر بما كتب صفو حياة السلطان .. نفوه هذه المرة إلى « الآستانة » .. هناك مات غريبًا ووحيدًا ..

« عبد الله النديم » .. الوطن الجميل ... حلمك في القلب لن
يرحه .. وفي العقل مستقره ومقامه .. رغم الأحزان لا تغمد قلمك ..
أشهر سيف التبكيت قبل التنكيت في قلب « عصر السوبر ماركت »
إفرازات طموحاته لعينة وعقيمة ... اكشف زيف أكاذيبه البراقة ...
إنقذنا من كوابيس أنباء الليل وأخبار النهار ...

عيون .. الجبرتي !

ذات مساء اغتالوا ابنه ومثلوا بجثته .. بينما كان فى الطريق من حى شبرا إلى وسط القاهرة .. ههـد الحزن والده .. انخرط فى نوبة بكاء مريرة وطويلة .. فقد بصره .. زاد من أحزانه أن شعورًا غائرًا بالذنب كان يخالجه .. أن السلطان الجائر وأعوانه انتقموا منه باغتيال ابنه .. مات متأثرًا بأحزانه .

هذه هى مأساة « عبد الرحمن الجبرتي » المؤرخ العظيم للزمان المصرى الحديث .. اسمه صار رمزًا ساطعًا لقداسة التاريخ .. لا تغمس ريشتك وأنت تؤرخ .. فى ملفات السلطان وحدها التماسًا لرضاه وعظاياه .. سجل بعيونك وقلبك وعقلك حركة الشعب .. كان هذا سر روعة كتابه « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » .. وقد أثار عليه سخط « محمد على » لأنه جاهر باتهامه باغتصاب السلطة فى مصر عام ١٨٠٥ يقول الراوى أن الوالى انتقم منه بقتل ابنه .

عندما كان الجبرتي فى الرابعة والأربعين من عمره دخل الغزاة الفرنسيون مصر بقيادة نابليون بونابرت .. رصد الجبرتي يوميات نضال الشعب وأحواله الاجتماعية .. لكنه لم يعكف على تأليف كتابه الفريد إلا بعد ٤ سنوات من اندحار الحملة الفرنسية .

التاريخ فى ذلك الزمان كان يمشى على الأرض مهلا .. لو أن العمر امتد بالجبرتي لروعه ما يحدث فى عصرنا .. مع إشراقة شمس كل يوم

يسعى التاريخ فى كل طرقات الدنيا .. يقصف من هول أحداثه وجسامتها
ريشة المؤرخ العجوز .. ذلك أن « كاميرا التليفزيون » تسجل وحدها
ما يحدث .

« الكاميرا » هى عيون جبرتى هذا العصر وريشته فى زمن الأقمار
الصناعية .. العالم قرية صغيرة .. صغيرة .. ترصده عيون الكاميرا صباح
مساء .. أعجوبة سحرها أشد وأقوى من ألعيب معادلات الكيمياء
فى معامل الحملة الفرنسية التى بهرت الجبرتى أيما إبهار .

هذه الأعجوبة لا تصور فقط .. وإنما تسهم فى صناعة التاريخ
بالصوت والصورة .. حدث هذا فى موسكو .. حشدت « الكاميرا »
مشاعر العالم لمناهضة قياصرة الانقلاب ضد جورباتشوف .. شاهدت
الدنيا الجماهير وهى تندد بالإنقلاب وتغنى للحرية .. فرع القياصرة
مما شاهدوا .. فلما كان اليوم الثالث استسلم منهم من استسلم .. وانتحر
من انتحر ..

فى زمن السماوات المفتوحة التى تمطر أقمارها الصناعية أخبار
الدنيا .. لا يمكن حصار الحرية وخنق مفردات الديمقراطية .. الشعوب
تدخل مدن سقراط فيلسوف الزمن القديم .. كان يناقش كل القضايا
فى الشوارع والحارات .. تتبعه الكاميرا الآن .. لا يجروا أحد على اتهامه
بافساد عقول الشباب .

لكن « الكاميرا » .. مؤرخ هذا الزمان .. لا تعرف الحياء أحياناً ..
غلبتها عواطفها فانسالت دموعها وقت أن كان جورباتشوف يلقي أمامها

خطاب الوداع ليلة الأربعاء الماضى .. اعلم أن الجوع كافر .. ولم تأخذوا
برأى فى وحدتكم أو اتحادكم .. هذا شأنكم .. لكنى أقول لكم .. لن
تستبينوا الصبح إلا ضحى الغد !

عيون الجبرتى .. تذرف دمعة على رجل غير التاريخ والجغرافيا ..
جعل الحرية تغرد على أشجار الدنيا لكن الأشجار السوفيتية الأسمتية
فى زمنه لم تطرح ثماراً يطعم الجوعى .. الكلمات وحدها رغم جمالها
يصعب حتى على الشعراء مضغها ! هذا زمن الحرية والخبز معاً ..
ولا وقت للجدل ..

الأستاذ .. والحرية

فتى فى الخامسة عشرة من عمره جاء إلى القاهرة من أسوان .. كان يلتبس فى دواوينها وظيفه يقات من دخلها .. فقد كان يتمنى لأسرة من بسطاء القوم .. لكن طموحه كان عظيماً .. وعشقه للأفكار كان كبيراً .. أما ولعه بالحرية فكان أسطورة حياته .. فهى صلاته اليومية فى محراب الكون ... وذات صباح بدأ رحلته الكبرى .. خاطر بالاستقالة من وظيفته الآمنة .. امتطى طموحه صهوة عقل مستنير .. وطرق عالم الصحافة ... خاض معارك ضارية تحت راية الحرية وبيرق الوطنية ... حكموا عليه بالسجن بتهمة العيب فى الذات الملكية ... كان ذلك عام ١٩٣٠ .. وقتها كان فى أوج شهرته ... كاتب مصر السياسى الأول .. مقالاته تستهل عصر التنوير الجديد ... وتروع سدنة الفساد وطغمة الإفساد .. إنه عباس محمود العقاد ... فى مثل هذا الشهر منذ ٢٨ عاماً رحل عن عالمنا ..

عندما كان صبياً قرأ أعداداً قديمة من صحيفة « الأستاذ » .. أجل صاحبها ومحررها « عبد الله النديم » خطيب الثورة العربية وكاتبها العظيم ... علمته مقالات النديم إن الصحافة هى خط الدفاع الأول عن الوطن ... عن الحرية ... عن أحلام البسطاء .. كلمتها لا بد أن تبقى قنديلاً يضيء دنيا الحقيقة حتى تتوهج .. إذا لم تكن كذلك فهى مجرد لغو وثرثرة على الورق ... لا قيمة له ولا جدوى منه ...

وقد خطا أولى خطواته الوثيقة فى صحيفة « الدستور » ! صاحبها محررها كان العلامة الكبير محمد فريد وجدى .. لم يحجر على رأى عقاد حتى ولو خالفه شخصيا .. وكان كثيرا ما يخالفه ... على صفحات الدستور نشر الأستاذ أول حديث صحفى فى تاريخ الصحافة لصرية ... لقد حاور « سعد زغلول » وقت أن كان وزيرا للتعليم قبل أن يصبح زعيما لثورة ١٩١٩ .

« الأستاذ » رغم رحيله .. لاتزال أفكاره تشهر قلمها فى وجه النظم الشمولية .. كان يمتقها كل المقت ... أما « النازية » فقد نازها وهى فى أوج غطرسة قوتها .. فضح زيف ما تدعيه .. عندما ظن الخلق أن جيشها يقترب أبان الحرب العالمية الثانية .. رأى الأستاذ أن من الفطنة أن يرح القاهرة إلى أسوان ... حتى تنكشف الغمة ..

« الأستاذ » بأفكاره وسيرته العطرة يقتحم ذاكرة أيامنا عندما تواترت للأنباء منذ أيام بإغلاق صحيفة « البرافدا » رمز الاتحاد السوفيتى القديم ... وبوق نظامه الشمولى .. لم تكن يوما صحيفة .. كما علمنا العقاد معنى الصحف ... مجرد نشرة حزبية ككية كانت ...

عندما وقع الانقلاب الفاشل ضد جورباتشوف فى أغسطس الماضى .. فقدت البرافدا البصر والبصيرة ... بادرت بتأييد أنصار الزمن القديم ... عندما اعتقلوا بعد ثلاثة أيام توقفت عن الصدور .. لكنها عادت بعد أن ازالتم صورة مؤسسها « لينين » من صدر صفحتها الأولى .. وطمست شعاره : يا عمال العالم اتحدوا ... لكنها لم تخدع

أحدًا .. كانت تحتضر حتى ماتت .. يقول محررها الأخير في مربية الحرك
الشمولى : « فى البدء انتهى الحزب الشيوعى ... ثم انهار الأتخا
السوفيتى ... والآن ماتت البرافدا ! »

« عباس محمود العقاد » لن يبقى غير الحرية يا فارسها المغوار
أنشودة حياتك يتغنى بها الكون كله ... فى البدء كانت الحرية « بلا قيود
أو سدود » ... حرية لم تنشدها لذاتها .. وإنما لتفنى بظلالها على الإنسان
حياة أرقى وأفضل ..

حلم البيت الصغير !

كان طفلاً لا يتجاوز عمره سبع سنوات ، عندما ودع والده أفراد أسرته . ظل شهوراً ينتظر عودة الأب الغائب . ولكن الانتظار لم يعد لهما طفولياً ، وإنما أصبح فجيعه .

ذات يوم أعطاه شقيقه الأكبر صحيفة مصرية . وطلب منه أن يقرأ
 تناوين صفحاتها الأولى . وعندما سأله .. هل فهمت ما قرأت ..
 تنصهره حزن نبيل . لقد استشهد والده المناضل الفلسطيني عبد القادر
 الحسيني في معركة القسطل قرب مدينة القدس . يوم لن ينساه ٩ أبريل
 ١٩٤٨ .

كان الطفل فيصل لا يزيد عمره آنذاك عن ٨ سنوات . كان يعيش مع أسرته في القاهرة وفيها تعلم حتى أنهى دراسته الجامعية . وهو يتذكر لم يولد في وطنه . وإنما ولد في العراق . فقد أبعدت سلطات انتداب البريطاني والده لأنه اشترك في قيادة ثورة ١٩٣٦ الفلسطينية ضد بريطانيا والصهيونية . وبعد تجواله في عدد من البلاد العربية استقر المقام في مصر . ولكنه غادرها بمفرده إلى فلسطين عام ١٩٤٧ ليقود قوات « الجهاد المقدس » .

« عبد القادر » مات شهيداً من أجل الوطن . تشييعه الزغاريد
قبره المجهول . يقول فيصل : أمى لم تترك لحظة علمها نبأ
بشهادته والدى .

ومرت السنين . وعاد فيصل إلى القلمس الشرقية عام ١٩٦٤ ليقب فيها . طارده سلطات الاحتلال الإسرائيلي . اعتقلته . استمر في نضاله أنشأ مركزاً للدراسات العربية عام ٨٠ . دأبته قوات الاحتلال عا ٨٨ . واعتقلت فيصل . كانت الانتفاضة مشتعلة . يقول : عند اعتقالوني كان مشروع إعلان الدولة الفلسطينية المستقلة على مكبي والآن أعلنت الدولة ويضيف إن معركتي هي كسب الرأي العام الاسرائيلي إلى جانب مبادرة السلام الفلسطينية .

ومن المؤكد أن فيصل قد قطع شوطاً كبيراً في معركته . فعندما اعتقلت سلطات إسرائيل منذ أيام قامت الدنيا ولم تقعد إلا عندما أطلق سراحه عندما سألوا فيصل عن أحلامه أجاب : إن حلم الوطن أولاً ويقوم بعد ذلك حلم خاص .. أن يكون لي بيت صغير بالقرب من القلمس أعيش فيه في سلام مع زوجتي وابني عبد القادر وابنتي فدوى .

العجوز .. والحجارة !

كان فى ريعان صباه . فى بدايات سن الحلم والأمل . ولكنه لم يحدث قرانه عن أحلامه الخاصة .. أن يكمل دراسته ، أن يتزوج . أن يمتلك سيارة . فالأرجح أنه لم يكن يفكر فى شىء من هذا .. إن حلمه كان أعظم .

اسمه « حاتم السيسى » . ولكن لا أحد يعرف اسمه . رغم إنه الكلمة الأولى فى كتاب الانتفاضة - فهو أول شهدائها . سقط برصاص قوات الاحتلال فى غزة . فى مثل هذا اليوم من سنتين . كان عمره سبعة عشر عاما .

استطعت بصعوبة أن أختزن اسمه فى ذاكرتى ، حتى لا يضيع منى فى زحمة الأسماء والأحداث . ولا أدري لماذا يذكرنى أحيانا بمشهد مثير وغريب - فذات صباح قالت سيدة إسرائيلية عجوز فى أسى وغيظ : - « إننى أشعر بالحنق على النبی موسى . فقد انتقل بنا من مكان إلى آخر حتى استقر فى أرض ليس بها بترول » !!

هذا ما قالته « جولدا مائير » فى زمن الصدمة البترولية الأولى بعد عام ١٩٧٣ . ولو أن العمر امتد بها حتى زمن الانتفاضة .. لكان حنقها قد زاد . فالأرض المحتلة ليس بها بترول ، ولكن حجارتها كثيرة . وقد تسابق كل أطفالها فجأة ليلعبوا لعبة الحجر .

لم يقذفوا بالحجر إسرائيل فى شوارع الضفة وغزة فقط ، وإنما قذفوها

به فى صحف بريطانيا وفرنسا وأمريكا . يقول هذا دبلوماسى إسرائيلى مخضرم هو « ديفيد كيمحى » .

فى ذلك الوقت كان صحفى أمريكى يتابع أنباء الانتفاضة وقابل فتاة فلسطينية صغيرة اسمها « جمالات » أذهلته بحوارها الذى لم يلقنه لها أحد . تقول « جمالات » ، التى أصيبت ثلاث مرات فى لعبة الانتفاضة : إن آخر طلقة اسرائيلية أصابتنى كانت عندما اشتركت مع مجموعة من الأطفال فى هجوم بالحجارة على جنود إسرائيليين كانوا يضربون بقسوة طفلاً من جيراننا .

لم تكن « جمالات » تعلم إن حجارة الأطفال زادت من الأزمة الاقتصادية للإسرائيليين وإنهم كانوا يبحثون الغاء عملتهم وإحلال الدولار الأمريكى محلها . ولم تسمع « جمالات » أن نائبة إسرائيلية هى « جيتولا كوهين » اقترحت وضع صورة الرئيس الأمريكى الأسبق « إبراهيم لنكولن » على أوراق عملة إسرائيل .

ولم تقرأ « جمالات » هذا الحوار الساخر الذى نشرته صحيفة جيروزاليم بوست الإسرائيلية :

• ما هى الخطوة القادمة بعد التفكير فى الغاء العملة الإسرائيلية واستخدام الدولار الأمريكى ؟

• أن نتقل كلنا للعيش فى حى بروكلين .. حى اليهود فى أمريكا .

الغرباء وكلمة السر !

عندما اغتالوه غدراً ، دفنوا جثمانه سرا . ولم يخفوا سعادتهم لقتل الرجل الذى أحال حياتهم إلى جحيم ، طوال ثلاث سنوات . رصدوا خلالها جائزة مالية كبرى لمن يأتى به حياً أو ميتاً .

كان شاباً فى نحو الأربعين من عمره ، عندما ترك أسرته دون كلمة وداع . اختفى عن الأنظار . ثم ظهر وهو يقود الثوار ضد قوات الانتداب والحركة الصهيونية .

حدث ذلك فى شهر يونية عام ١٩٣٦ . كانت الثورة الفلسطينية الكبرى قد بدأت منذ شهرين بحركة عصيان مدنى شامل ، احتجاجاً على تصاعد هجرة اليهود إلى فلسطين ، تحت عباءة الانتداب البريطانى .

كان يطلق على نفسه اسم « المجاهد الصغير » فى سبيل الوطن . وبينما كان نائماً ذات ليلة من عام ١٩٣٩ ، حاصروا المكان . واغتالوه . إنه الشهيد « عبد الرحيم الحاج محمد » .

كان لا يزال صبياً فى العاشرة من عمره ، عندما رست فى ميناء حيفا فى أغسطس عام ١٨٨٢ سفينة اسمها « أصلان » نزل منها ١٣ رجلاً وامرأة واحدة . لم يدرك الصبى أن هؤلاء الغرباء يحملون فى وجدانهم وعقولهم حلمًا دموياً لاغتيال وطنه !

استوطن الغراء قرب يافا ، فى مستوطنة أطلقوا عليها اسم « ريشون
لوسيون » وهى تعنى بالعبرية « الأول فى صهيون » . فهم من جمعية
أحباء صهيون . كانوا بداية موجة الهجرة الصهيونية الأولى إلى فلسطين .
من هذه المستوطنة ، التى تحولت بعد أكثر من مائة عام إلى مدينة
يهودية ، خرج إرهابى صهيونى . ارتكب مذبحه وحشية ضد
الفلسطينيين يوم الأحد الدامى . هذا ما تؤكده دفاتر التاريخ .

الغراء منذ جاءوا بجلهم الدموى حرقتهم الأولى الإرهاب والقتل .
هدفهم طمس الوجود الفلسطينى . كبيرهم مناحم بيجين يلقنهم كلمة
السرف فى كتابه « التمرد » . يقول لهم : « أنا أقاتل .. فأنا إذن موجود » .
هذه هى دياجعة دستورهم الإرهابى .

الغراء .. كأسراب الجراد « يهاجرون » إلى الأرض ، هذه الأيام .
ما العمل ؟ الأسطورة اليهودية لا تكفى حتى لو كانت رموزها تمنح
الأمل . تقول الأسطورة ملاك الغراء يسير إلى الأمام ، ووجهه إلى
الخلف . لا يصبر إلى أين يسير .

لن نتخذنا هذه الأسطورة ، إن لدينا الآن أسطورة الواقع الجديد .
أطفال الحجارة يروون ، بالدم ، كلماتها .. التى تضىء ، وسط الغيوم .
دروب المستقبل .

الرحلة ... الكبرى

كان رجلاً مهيباً . تجاوز الستين من عمره . كان يمكنه أن يكفى كلمة والموعظة الحسنة ليحذر قومه من الخطر الداهم الذى يحرق جميع . لكنه أدرك أن الكلمة وحدها لا تكفى . جمع نفراً من أنصاره اجتماع سرى فى حيفا . قال لهم : لقد حان وقت الطلقات دفاعاً عن الوطن .

التف الشباب من حوله . باعوا أثاث بيوتهم ، وحلوا زوجاتهم لشراء يلزمهم من أسلحة . خرجوا معه ليكونوا طلائع أول ثورة فلسطينية مسلحة ضد الانتداب البريطانى والحركة الصهيونية . استشهد الرجل . بدقيته فى يده .

إنه « عز الدين القسام » بطل ثورة ١٩٣٥ الفلسطينية . التى مهدت ثورة الكبرى فى العام التالى . كان مواطناً سورياً جاء إلى القاهرة ، ثم فى الرابعة عشرة من عمره ، ليتعلم فى الأزهر الشريف . تتلمذ على دروس الشيخ محمد عبده ، الفقيه المستنير . وتعلم كراهية المستعمر ، ثم يرى المشهد الحزين لهزيمة ثورة « أحمد عرابى » .

وعندما عاد إلى سوريا ، كان قد نذر نفسه للدفاع عن الوطن والحرية . انضم إلى حركة مقاومة الاستعمار الفرنسى . أصدرها حكماً بإعدامه . إلى فلسطين واستقر فى حيفا . فقد كان قدره أن يموت شهيداً .

فى ذلك الوقت ، كانت الحركة الصهيونية تتحول إلى عاصفة من

الإرهاب المجنون . بزعامة فلاديمير جابوتنسكى . كان يقول لأنصاره :
« إن الله أنزل التوراة والسيف على اليهود » ! وفى معبده ترعرعت الأفكار
الإرهابية لمناحيم بيجين . واسحق شامير ، وأريل شارون ، ومائير
كاھانا ، وغيرهم ..

الحاخام « مائير كاھانا » .. وحركته المسماة « كاخ » دليل فاضح على
هذا الإرهاب الصهيونى . فكلمة « كاخ » تعنى بالعبرية : « هكذا » وتحتها
شعار مرسوم ليد تمسك بالسيف ، وأخرى بالتوراة . وصيحة كاھانا التى
يزأر بها أتباعه : « اطرّدوا الفلسطينيين . اقلّوهم . افقّأوا عيونهم » !
عندما أصبح الحاخام عضواً فى برلمان إسرائيل عام ١٩٨٤ ، قال
صحفى إسرائيلى هو « يورى أفنيرى » « إن كاھانا لا يتحدث باسمه
فقط ، وإنما يتحدث باسم الذين يتربعون على قمة أحزاب إسرائيل .
إن الكاهانية أعلى مراحل الصهيونية النازية » .

صباح الأحد الماضى ، خرج إرهابى إسرائيلى من تحت عباءة كاھانا .
أطلق مدفعه الرشاش على العمال الفلسطينيين . مذبحه مروعة . هرب
القاتل لفترة قبل اعتقاله عندما سأله شقيقه : أين كنت ؟ رد بزهو
مخيف : « كنت فى رحلة صيد فى سوق العبيد » !

يا شيخنا الجليل .. عز الدين القسام .. أحفادك أطفال ثورة الحجارة ،
لم تروّعهم المذبحة . خرجوا يتحدثون القتلة . إنهم فى رحلة استشهاد
كبرى . لن يعودوا إلى أحضان أمهاتهم الثكالى .. حتى يعود الوطن .

طائر الوطن !

رحلته كانت شاقة ، فوق سطح سفينة عتيقة قضى وقتاً طويلاً ،
عندما رست به فى يافا بفلسطين عام ١٩٠٦ ، انتابته هواجس غامضة ،
وفرحة غامرة ، ليلتها لم ينام ، رغم إرهاق الرحلة ، ظل مؤرقاً ، كان
يطوى بين جوانحه سرا لا يوح به إلا لأقرانه ، ممن على شاكلته . سره
كان « مؤامرة » .. أراد بها أن يعطن التاريخ ، حتى يسيل دم شعب
بأكمله ، ويمزق الجغرافيا ، لينفى هذا الشعب تحت ركامها !

عندما كان فى السادسة عشرة من عمره كوّن جماعة غريبة أسماها
« عزرا » .. وهو اسم مؤسس الهيكل اليهودى الثانى .. فضح توجهه
واتجاهه ، صهيونى هو ، يريد هدم المسجد الأقصى ، ليقم على أنقاضه
الهيكل من جديد !! قالها يوماً للجميع عندما حملته المؤامرة الكبرى إلى
كرسى السلطة فى إسرائيل . قال : « لا معنى للقدس بدون إقامة الهيكل
مكان الأقصى » !!

إنه « ديفيد بن جوريون » ، أول رئيس لوزراء إسرائيل ، من بين طليات
أفكاره المتعصبة .. تعرج حركات التطرف الدينى اليهودية .. « كاخ » ..
« كتلة الإيمان » .. « أمناء جبل الهيكل » كلهم إرهابيون .. وبرابرة .

خرجوا صباح الاثنين الماضى ، يريدون وضع حجر أساس الهيكل ،
كان معهم ووراءهم جنود إسرائيل ، تصدى لهم أبناء الأقصى ، وقعت
المذبحة المروعة فى ساحته ، فرضوا الحصار على كل الأبناء .

شيخ طاعن فى السن ، يحمل فوق كاهله ثمانين عامًا ، تكن عظامه
الواهية تحت وطأتها ، خرج فى شجاعة نادرة ، تحدى الحصار ، توجه
للصلاة مع الأبناء فى الأقصى . أطلقوا فى وجهه قنابلهم المسيلة للدموع ،
لم يحتمل الشيخ ، سقط مغشيًا عليه .

إنه الشيخ « سعد الدين العلمى » .. مفتى القلس ولد على أرضها بعد
خمس سنوات ؛ من مجيء « بن جوريون » إلى يافا قادمًا من بولندا ،
القدر كان يدخرك « يا شيخ سعد » لهذا اليوم الحزين ، قبلها .. حاولوا
اغتيالك . حرقوا سيارتك ، أشعلوا النيران فى بيتك ، اعتدى عليك
جنودهم بالضرب ، حاخامهم المتطرف الإرهابى « مائير كاهانا » يترصد
خطاك ، وهو يردد موعظته الهمجية : « اقتلوا العرب ، افقأوا عيونهم !
عشية مذبحه الأقصى نعق اليوم الصهيونى .. » « شامير » يقول
للمتطرفين : « سوف نستمر فى بناء المستوطنات ، وإقامة حى يهودى
جديد فى القلس » .. تدثر بكلامه هذا « أمناء جبل الهيكل » .. نسل
أفكار بن جوريون .. وهم يتأهبون لاقتحام الأقصى ..

الشهداء فى كل مكان .. الأمهات الشكالى يزغردن .. لا بكاء على
الشهيد .. طائر الاستشهاد يفرد بأنشودة الوطن العائد .. طوبى
للشهداء .. ولن يرمى الحجر .

الهجرة .. من دائرة الخوف !

عندما بلغ السادسة من عمره ، ماتت أمه . وتولت خالته تنشئته لمدة ثلاث سنوات . كانت سيدة رحيمة ومتقفة . من خلال عيونها رأى الدنيا واسعة ورحبة . عندما بلغ سن الشباب كان وعيه بالواقع قد اكتمل . تمرد عليه . امتشق قلعه ليحارب السلطان الجائر .

كان سوريا ، عاش في مدينة حلب . وانتمى لأسرة عريقة وموسرة . كان يمكنه أن يعيش حياة ناعمة . هائلة . ولكنه اختار أن ينزل إلى شوارع المدينة . قال إن استنهاض همم الناس هو مهمتى ، ومهنتى . أصدر صحيفة « الشهباء » . أزعجت مقالاته السلطان العثماني . فأغلقها بعد صدور ١٥ عدداً . لم يأس . أصدر صحيفة « الاعتدال » فلقبت ذات المصير .

أصبح رجلاً طريداً ، ومطارداً . لكن أرض الله واسعة . هاجر إلى مصر . ونشر في صحفها سلسلة مقالات عاصفة . جمعها في كتابه « طبائع الاستبداد ، ومصارع الاستعباد » . منذ نشره عام ١٩٠٠ في القاهرة ، وهو ينير دروب الحرية . مصباح لا ينطفئ سراجة ، رغم عواصف القهر العاتية .

إنه « عبد الرحمن الكواكبي » مفكرنا العربي
لمحاربة السلطان العثماني الجائر . كان يقول
الاستبداد ، ودواؤه الشورى الدستورية » .. الد

ونبه إلى « أن الاستبداد يضعف حب الوطن . ويدفع الناس إلى الرغبة في الانتقال منه » .. والهجرة خارج حدوده .

المهاجرون .. كثيرون ، هذه الأيام .. يا شيخنا العظيم « الكواكبي » لو أن العمر امتد بك لرأيت العجب العجائب . ولانشرح صدرك في الاستبداد ذليل . منكس الرأس . يحارب معاركه الأخيرة في خندق سلطة الفرد المطلق .

في بلد اسمه « ألبانيا » عاش أهله البسطاء في خوف مروع .. خلف أسوار الزمن والدنيا . سيطر على أقدارهم رجل مستبد اسمه « أنور خوجه » . بشرهم بالمن والسلوى ! وبالفردوس المفقود ! لم يحصدوا سوى القهر ، وذل الصمت .

شاب كان يجلس ذات يوم على مقهى . جرؤ على الكلام مع صديقين . قال إن الأحوال ليست على ما يرام ! لم ير نور الشمس سنوات . اعتقلوه . الكلام جريمة ! والسفر إلى الخارج « خيانة » ! مات « أنور خوجه » عام ١٩٨٥ . بعد حكم جائر استمر أكثر من ٤٠ عامًا . في ذلك العام السعيد ، دخل رجل مستتير وشجاع اسمه « جورباتشوف » قصر الكرملين . غير الدنيا من حوله . انهار سور برلين في ٩ نوفمبر ١٩٨٩ . سقط الاستبداد . بدأ عالم جديد أضواءه باهرة ، ومبهرة .

لم تغلت من إعصار الحرية في أوروبا سوى « ألبانيا » حاكمها بعد « رامز عالبا » يتحسس طريقه بحذر . خطوة مترددة للأمام ،

وخطوتان للخلف . امرأة شرسة من الزمن القديم تعترض طريقه . إنها
قرينة « أنور خوجه » ، تتزعم عصابة الحرس القديم .
عندما هبت رياح الحرية على « ألبانيا » منذ أيام ، هرع الآلاف إلى
السفارات الأجنبية . هاجروا من دائرة القهر والخوف ، والصمت .
الوطن ليس جغرافيا فقط ، إنه أساسا تاريخ تبدأ سطورهِ بكلمة الحرية .
أيها المفكر الكبير « عبد الرحمن الكواكبي » .. فى طليعة موكب
الحرية .. مكانك ، ومكانتك . صدقت نبوءتك . قلت وأنت تحارب
الاستبداد ، وتغنى للحرية : « هذه صيحة فى واد . إن ذهبت اليوم
مع الريح » ، فقد تذهب غدا بالأوتاد .

أحلام .. اليقظة !

كان فى مقتبل عمره .. عندما دبت الحركة فى قريته الهادئة ذات يوم .. قدم إليها نفر من كبار القوم .. طرّقوا باب داره .. هددوا والده بالقتل إذا لم يرح فراش مرضه ليتولى أمرهم ويقود مسيرتهم .. لم يستطع الرجل المعجوز أن يجادلهم أو يحاورهم .. اكتفى بأن قال لهم فى صوت واهن .. إليكم ابنى فهو أقدر منى بشبابه وقوة عزيمته .. كانت المفاجأة أن وافقوا بالإجماع .

امتطى الشاب صهوة حصانه .. وأشهر حسامه .. ورفع راية الوطن خفاقة يفتأ بها عيون الغزاة وقلوبهم .. لم يسقط سيفه من قبضة يده طوال سنوات ست من النضال .. لكن الغزاة تكاثروا عليه بأسلحتهم الحديثة .. استسلم حتى ينقذ البلاد من مذبحه وحشية .. نفوه إلى عاصمتهم باريس ثم سمحوا له بعد خمس سنوات بالسفر إلى دمشق وهناك وافاه الأجل عام ١٨٨٢ .

إنه « عبد القادر الجزائرى » .. الأب الروحى للجزائر الحديثة والمعاصرة .. سلم راية الوطن والحلم للأبناء والأحفاد قبل رحلة المنفى الأجرى .. لم يخذلوه .. صنعوا ملحمة الحرية بدماء مليون شهيد .. خاضوا أشرس المعارك مع مستعمر يعاند الزمن والتاريخ .. أبواقه كانت تقول صباح مساء .. الجزائر فرنسية !! أراد بحد سيفه المسموم إزهاق الهوية .. لكن الوطنية تریاق .. صمدوا رغم الهول لحرب الإبادة

الهمجية .. وتصعدوا لمحاولة إفناء حضارتهم .. حتى رفعوا علم الاستقلال
بعد ١٣٢ عامًا من الاستعمار الفرنسي .

رحلة الجهاد الأكبر بدأت .. لاستشراف تخوم الفردوس الأرضي ..
لا عائق بعد اليوم .. الثورة طهرت الأرض من الأحقاد .. اقتلعت
أعشاب الفردية .. الكل فى واحد .. هكذا كنا فى زمن الحرب
والموت .. أحلام اليقظة النورانية فى قلب الإنسان يداهمها صخب الحزب
الواحد وشعارات الجدران .. الثورة الآن غدت دولة .. حذار انتباه !!

« هوارى بومدين » بطل كان يقود الثورة فى وهران لكنه فى
زمن الدولة اقتحم بدبابته القصر .. واعتلى وحده كرسى السلطة ..
هذا ما حدث عام ١٩٦٥ .. لم يرح أعتاب القصر إلا عمولاً فوق
الأعناق .. مات عام ١٩٧٩ .. فى ذلك الوقت كان شبح الأزمة
يدق الأبواب .. النفط عماد الثروة تتدهور أسعاره .. حلم المشروع
الوطني يترنح .

« الشاذلى بن جديد » .. يدخل بوابات القصر - لكنه كان حذراً
وفطناً أدرك أن زمن الأسطورة قد ولى .. الواقع قد يمهل ولكن السخط
لا يهمل .. مرجل الإحباط تفجر خلال عقد الثمانينيات . أنات الخلق
تتحول إلى صرخات ومظاهرات تجتاح الطرقات .. يخرج الرجل من
تحت عباءة الحزب الواحد .. يسمح بالتعددية عام ١٩٨٩ .

رجال الحزب الواحد يثيرون الشارع بمواعظ الحلم الضائع .. كان
المشهد فاجعاً .. رجل منهم قال عام ١٩٩٠ إن أكثر من ٢٦ مليار

دولار ضاعت سدى .. دفعت رشاوى وعمولات .. إنه رئيس الوزراء
الأسبق عبد الحميد الإبراهيمى .

الفجيعة زادت .. عندما تبادل سيد أحمد غزالى رئيس الوزراء مع
مولود حمروش رئيس الوزراء السابق الاتهامات العلنية حول بيع رصيد
البلاد من الذهب وبيع آبار بتروها !! لم يبق إلا حصاد الإحباط المر من
الزمن القديم .. أجواء اليأس تفرخ نتائج الجولة الأولى من الانتخابات
التشريعية التى جرت منذ أيام ..

« عبد القادر الجزائرى » .. الاقتصاد جنى هذا العصر خرج من
القمقم .. رغم الأحزان وطريق آلام القادم .. لا تنرس راية الوطن إلا فى
قلب العالم .. لا فوق الروابى القديمة .

رجال .. فوق الجسر !

حياته لم تكن سهلة ولكنه كان عنيذاً وطموحاً . وكان عناد أسرته أعظم . تكبد والده عنه جما كي يعول عائلته . أما أمه فقد باعت حليها حتى يتعلم . وذات يوم شق طريقه من طهطا إلى القاهرة . وحط رحاله على أبواب أزهرها الشريف .

بعد خمس سنوات ، اختاروه لنجابه . ورجاحة عقله شيخاً يجلس إلى أحد أعمدة الأزهر ليعلم طلابه . كان هذا غاية المراد من رب العباد . غير أن الأقدار كانت تدخر الفتى لدور حضارى عظيم . فبعد تعيينه واعظاً بالجيش ، اختاروه إماماً لبعثة تعليمية مصرية فى فرنسا .

كان الفتى رفاعة الطهطاوى فى الخامسة والعشرين من عمره عندما وصل إلى باريس . حلقت روحه فى أجواء حضارتها وفنونها . نهل من علومها الحكيمة . هكذا قال لنا فى كتابه « تخلص الابريز ، فى تخلص باريز » .

منذ ذلك اليوم الذى يشرق نوره حتى الآن ورفاعة يحمل راية النهضة الفكرية الحديثة . من تحت عباءته يخرج المفكرون والكتاب والفنانون الذين يشيعون الضياء والمعرفة فى بر مصر .

فوق جسر التواصل الحضارى بين الشرق والغرب تطير عصافير الشرق لتغرد على الأشجار السامقة للفن والحضارة فى باريس . لم تغمض العين أبداً عن مدينة النور ، حتى وقت الجفوة ، وزمن الخصام السياسى .
تشاء الأقدار أن ينهى طفل فرنسى ولد بعد حوالى ثلاثين عاماً من موت رفاعه ، هذه الجفوة ، وذاك الخصام ، إنه شارل ديغول الذى تحتفل فرنسا الآن بالذكرى المائة لمولده .

ديغول .. أسطورة وطنية . بدأت سطورها وسط عاصفة الحرب العالمية الثانية . كان فى مهمة فى لندن . وجد نفسه « ، ذات صباح حزين ، ضابطاً بدون قيادة فى جيش هزمه غزاة النازية .
أبداً .. باريس لم تسقط . هكذا قال الجنرال ديغول . هز أبناء وطنه من الأعماق نداء المقاومة الذى أطلقه يوم ١٨ يونية عام ١٩٤٠ . تحررت باريس بعد ٤ سنوات .

ديغول مثلما حرر فرنسا من الغزاة ، حررها من عار الاستعمار . قال للمستوطنين « لا » الجزائر ليست فرنسية . إنها جزائرية . الزعيم الافريقى سيكوتورى قال « لا » فى وجه الجنرال وحصل على استقلال غينيا .

أسطورة الجنرال لم تكن تبهرنا كثيراً ، كان يغشاها مساندة فرنسا لإسرائيل . لكنه ذات يوم حث الخطى على جسر « رفاعه » الحضارى الواصل بين باريس والقاهرة . أدان عدوان ١٩٦٧ . ومنع تصدير

الأسلحة لإسرائيل . لم يأبه بالحملة الصهيونية الهوجاء ، التي لا تزال
تطارده حتى بعد موته .

يا جدنا العظيم رفاعة .. الجنرال المنتصر من فوق جسر الوطنية
والحضارة .. يقرئك السلام .

دموع الفيلسوف والمشهد الأخير .. !

دموع .. الفيلسوف !

كان يحب زوجته . لا يطيق فراقها . وزاد حبه لها عندما تحملت في رضا حياته العاصفة . وعندما ماتت لم يحتمل الدنيا بعدها سوى ١٨ شهراً . ودفن في لندن . إنه « كارل ماركس » أحد الفلاسفة الكبار .

أحفاد هذا الفيلسوف ، الذين خرجوا من بين دفتي كتبه ، ثارت عليهم شعوبهم - لأنهم وضعوا الكتب على الرف . وتحولوا إلى كهنة صغار في معبد السلطة المطلقة ، بكل إغراءاتها المفسدة .

عندما اشتدت رياح الثورة ، إنهار سور برلين تحت وطأة أقدام عشاق الحرية . كانوا يقولون : « ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان » وهو خبز لا يحصلون عليه إلا بعد الوقوف في طوابير طويلة .

في هذا الوقت لم تنس سيدة ألمانية مستنيرة أن ماركس هو أولاً مفكر ألماني كبير . طالبت وهي نائبة رئيس برلمان ألمانيا الغربية حكومتها أن تبرع لتجديد مقبرته في لندن . عندما وافق هيلموت كول المستشار

الألماني الغربي المحافظ على الاقتراح أصابت الدهشة الكثيرين . لا مبرر للدهشة : إن البلاد المتحضرة لا تفرق بين أنبائها حتى لو كان بينهم مشاغب على الورق وأن شغبه كان فكراً وفلسفة .. وليس لغوا .

حدث هذا بعد أن سقط كاهن السلطة المطلقة لمدة ١٧ عاما في ألمانيا الشرقية . أسقطته رياح التغيير العاصفة من فوق عرشه . تردد أنه سيقضى بقية عمره في دير . ولكنه دخل المستشفى لإجراء عملية جراحية . أخرجه قبل أن يتم فترة نقاهته . لأن مرضى آخرين في حاجة ماسة إلى سريره بالمستشفى .

لم يكد اريك هونيكر (٧٧ عاما) يغادر المستشفى حتى ألقوا القبض عليه لمحاكمته بتهمة الفساد والخيانة . أصدقاؤه يقولون إنه لا يدرك سبب موجة الغضب التي تجتاح البلاد بعد كشف ملف تجاوزات نظامه . تماماً مثلما كان شاوشيسكو ديكتاتور رومانيا وزوجته ايلينا لا يدركان أنهما في طريقهما للإعدام ، بعد محاكمتهما بتهمة إبادة الشعب .

هونيكر كان ذات يوم شاباً بريئاً . ناضل ضد النازية في بلاده . أعتقل طوال فترة الحرب الثانية . لم ير النور إلا عندما حررته القوات السوفيتية بعد هزيمة هتلر والنازية . واستطاع أن يصل إلى قمة السلطة في ألمانيا الشرقية عام ١٩٧٢ . عندئذ بدأ رحلة السقوط والتخلي عن البراءة في معبد السلطة المطلقة .

إن الفيلسوف لم ينجب أحفاداً !

محاكمة الموتى !!

طارت أمه من الفرحة عندما ولدته . فقد مات لها طفلان فى سن صغيرة . كانت سيدة بسيطة . تعمل فى بيوت الأغنياء لمساعدة زوجها الإسكافى ، صانع الأحذية . فقراء يرهقهم البحث عن لقمة العيش . وزاد الطين بلة أن الأب كان سكيراً . واشتدت أحزان الأم عندما خذلها ابنها .. ولم يحقق حلم حياتها : أن يصبح رجل دين .

هذا الابن الذى خنق حلم أمه . ثم لوث حلم أمته ، هو جوزيف ستالين . حكم الاتحاد السوفيتى ٢٩ عاما . كان خلالها الحاكم الفرد ، كلمته هى الأخيرة فى كل شىء من مشكلات اللغة وحتى البحوث العلمية . رغم أنه لم يكمل تعليمه !

عندما جلس على عرش السلطة أعدم كل معارضيه . ومحاكمة التطهير الكبرى عام ١٩٣٦ تشهد على ذلك . حتى زوجته الجميلة « ناديشكا » عندما أفرعتها جرائمه السياسية ، ماتت ذات ليلة فى ظروف غامضة . يقولون : إنه دس لها السم فى الشراب !

لم تمر ثماني سنوات ، حتى ارتكب جريمة مروعة . لم يكشف عنها الستار بالكامل إلا منذ أيام عندما اعتذر الاتحاد السوفيتى رسميا لبولندا عن قتل ستالين وبوليسه السرى لـ ١٥ ألف ضابط بولندى عام ١٩٤٠ . كانوا قد وقعوا فى أسر السوفيت .

مأساتهم كانت مفاجئة . لغز استمرت طلاسمة نصف قرن من الزمن
الردىء . اختفوا كأن الأرض انشقت وابتلعتهم . قال لمن سأله عنهم :
لقد هربوا ؟ . كان يكذب . لم يجرؤ أحد ، فى عهد حكم الفرد ،
أن يستبد به الجنون ، يصرخ فى وجه القاتل بالحقيقة .

جورباتشوف قال الحقيقة أخيرا . كان يريد أن يغسل يديه من دم
الأبرياء الذين اغتالهم ستالين فى غابة قاطين منذ ٥٠ عاما . قال .. لم
يكونوا وحدهم كان بجوارهم أبناء من الشعب السوفيتى !

القتلة . لاهد من محاكمتهم . هكذا يقولون فى بولندا . إن مجرد
الاعتذار عن هذه الجريمة الكبرى لا يكفى . لا يضمم جراح التاريخ .
التاريخ .. جراحه كثيرة . كثيرة . لقد أفلت ستالين ورفاقه القتلة
من العقاب . فى زمن الديكتاتورية .. لا تنصب محاكم التاريخ سوى
للموتى !

الرسالة الأخيرة

ذات صباح عندما طرقت باب غرفة نومه . لم يرد .. وجدوه متحرراً . كانت إلى جانبه رسالته الأخيرة : « إلى الجميع ، إني أموت . لا أتهم أحدا . ولتتعلموا بالسعادة ! هكذا انتحر الشاعر الروسي العظيم « مايكو فسكى » . كان الجميع يتقدونه بعنف لأنه يتغنى للحب ، رغم إنه كان يهتف أحياناً للمصانع الجديدة .

بعد سنة واحدة من هذا المشهد الحزين ، ولد الطفل ميخائيل جورباتشوف فى مارس ١٩٣١ فى أسرة من الفلاحين الفقراء . تولى جده توجيهه وتعليمه . جعله يقرأ أشعار « بوشكين » أعظم شعراء روسيا ، ورواية ليرمونتوف « بطل من زماننا » . هكذا علمه جده الشاعرية والحلم . وهما طوق النجاة للإفلات من الالتصاق بالواقع ، وبداية للتمرد عليه . ويبدو أن الفتى ظل محتفظاً فى أعماقه ووجدانه بما علمه جده ، رغم أنه مشى طويلاً فى دروب الواقع الصارم ، والتزم به كثيراً . حتى أصبح زعيماً للاتحاد السوفيتى عام ١٩٨٥ .

فى حياته يومان هومان : يوم زواجه من زميلته الجامعية الجميلة « رئيسا » ، ويوم موت زعيم بلاده ستالين بعد حكم استمر نحو ثلاثين عاماً . ولم تمض ثلاث سنوات على موته حتى بدأت حملة انتقاده . كان خروشوف هو الأب الروحى لحركة الإصلاح . وهى الحركة التى حوصرت منذ البداية .

الواقع أصبح عبثاً ثقيلاً . جورباتشوف قرر أن يكون رجل الأقدار المتصادمة . قال : « أيها الناس تكلموا بصراحة . وتعالوا نعد البناء » . وعندما تكلم الناس بعد صمت طويل دام ٧٠ عاماً دوت الكلمات ، فهزت أركان الواقع . تناثرت أحجاره فى كل مكان : ثورة أحياناً ، وفوضى أحياناً أخرى .

لم يتراجع . ذهب إلى عرين الأسد فى ليتوانيا . مشى فى شوارعها الغاضبة . لم يسمع كلماته أحد . يقول مواطن هناك : « لقد جاء جورباتشوف بعد أن تحرك القطار » . لم تمض ساعات حتى بدأت الحرب الأهلية فى مناطق أخرى . إن العقد السوفيتى مهدد بأن ينفطر . زوجته « رئيسا » كانت بجانبه ، عندما تحرك القطار دون أن يلحقا به . كانا وحيدين .

الفارس .. والعجوز !

ذات ليلة شتوية .. تسلك رجل عجوز من دفء فراشه الوثير وهرب من ضيعته .. كان قد ضاق ذرعًا بالواقع من حوله .. وقد عثروا عليه بعد أربعة أيام فى محطة سكة حديد صغيرة .. وهناك على أحد مقاعدها الخشبية لفظ أنفاسه الأخيرة .. إنه الروائى الروسى العظيم « تولستوى » الذى هز وجدان الدنيا بروائعه .. الحرب والسلام وأنا كارنينا والبعث .. وأدهش خلق الله بتمرده الجسور على أفكار زمانه وتقاليده .. فهو سليل أسرة غنية إلا أنه أحب الناس البسطاء .. ملح الأرض .. وتعلم منهم الحكمة ..

« تولستوى » .. ببصيرته الثاقبة وصفاء روحه .. لم يجدف بقارب حياته فوق تيار الأمر الواقع .. لو أنه فعل ذلك لعاش حياة هائلة مترعة بالسعادة مع زوجته صوفيا وأولاده .. لكنه كان يبحث عن الحقيقة والعدل .. كان يطمح إلى تغيير الدنيا .. فكابد القلق واعتصرته الهموم .

كان شجاعًا وعظيمًا .. حياته غدت سراجًا منيرًا لكوكبة من أنبل أبناء الدنيا .. من بين صفحات رواياته وكتبه خرج غاندى ونهرو وكثيرون غيرهما من فرسان هذا الزمان .. لعل آخرهم جورياتشوف عندما تمرد على الأفكار القديمة .. كان بينه وبين تولستوى حب قديم كلاهما عندما كان صبيًا عشق أشعار بوشكين شاعر روسيا الملهم .

جورباتشوف .. عندما بدأ عام ١٩٨٥ مسيرة التمرد كان فوق قمة السلطة .. كان يعلم أن الأمر ليس مجرد رحلة لاقتناص أخطاء الماضي وإطلاق سراح المستقبل .. كان يدرك أن النية الحسنة وحدها لا تكفى سنداً في صراعات السلطة .. لو أنه آثر السلامة لبقى امبراطوراً فوق عرش الكرملين حتى تخين ساعته ! لكنه خاطر بالخروج من وراء الأسوار العالية .. وبشر بزمن الحرية .. كان حالمًا عظيمًا .. لكن مشروعه الفكرى لم يكن بناؤه قد اكتمل .. لذلك كان يخطر خطوة باهرة للأمام وخطوة مرتبكة إلى الخلف حتى تعثرت خطاه فى تيه القوميات البازغة .. دعوته للحرية أنبتت أعلامها !!

تكاثفت الاعلام من حوله .. تراجع إلى الخلف .. ارتضى إلا قليلاً فى أحضان الحرس القديم .. انفض رفاق الزمن الجديد .. كان وحيداً عندما قرر أباطرة الماضى أهدار دمه فى انقلابهم الفاشل فى أغسطس لكن طوق نجاة « يلتسين » أنقذه .. والجماهير الظالمة للأمنيات النبيلة تقاطرت .. احتشدت فى الشوارع .. وقهرت دبابات القياصرة الجدد .

عندما عاد إلى الكرملين أغلق أبوابه من ورائه .. انكب على تأليف كتاب عن الانقلاب الفاشل .. أضاع الفرصة الذهبية .. لم يطرُق حديد زمنه الجديد وهو ساخن .. لم يركب جواد أمنيات جماهير أغسطس .. ليكمل بناء مشروعه بلا تردد .. اكتفى بأحاديث يطلب فيها من الآخرين العون والمساعدة لدفع مخاطر المجاعة .. إمبراطورية كبرى تتسول !! بينما تمتلك كل عناصر القوة ومقومات الحياة الكريمة .

خطأً وخطيئة .. اختار جورباتشوف فى لحظة ضعف أن يخرج من
مجرى التاريخ .. فأجهزت عليه تخوم الجغرافيا .. قرر رؤساء
الجمهوريات الجديدة إعدام الاتحاد السوفيتى القديم وتنكيس علمه إلى
الأبد .

« تولستوى » .. بلادك تبدأ رحلة مخوفة بالمخاطر والأهوال .. عليها
أن تسلك دروباً وعرة قبل أن تهدأ العواصف من حولها .. أما حفيدك
الفارس النبيل فلن تكون فى صحبته وهو يغادر الكرملين سوى طيور
الحرية لأنها لا تعاني برد الشتاء ولا نقص الطعام !

المشهد .. الأخير !

سنوات طفولته الأولى كانت تفيض بالأحزان .. مات أبوه قبل مولده
رت خطاه في دروب الدنيا .. كان من فقراء القوم . لكن أمه كانت
ة .. أمسكت يده وهو يمتشق سيف خياله .. وهو يعبر على جواد
حه آلاف الصفحات قارئاً لمؤلفات المبدعين الكبار .. عرف
ه .. الدنيا ليست رحلة سهلة وإنما معركة نبيلة عليه أن يبارز في
رعها بالكلمات جيروت الطغاة .

عندما بلغ السابعة والعشرين من عمره .. اعتقلوه ذات صباح ..
نوه إلى معسكرات العمل ليقضى فيها أحد عشر عاماً .. إنه
لكسندر سولجنستين أعظم الأدباء المعاصرين في الاتحاد السوفيتي
يم « كشف في ثلاثيته الرائعة والمفجعة أرخبيل الجولاج وقائع زمن
ب في عهد الطاغية ستالين .. عندما أطلقوا سراحه لم يهرب إلى
ديب ذاته .. وإنما شهر قلمه في وجه الطغيان .. ضاق به النظام
فا .. بينما منحه العالم جائزة نوبل للأدب عام ١٩٧٠ .. ولذلك
نوه من وطنه .. قالوا إنه خائن فقد طالب بالحرية والديمقراطية
يقي من الإمبراطورية سوى روسيا وأوكرانيا وروسيا البيضاء قلب
ة السلافية .. والجمهورية الفاضلة الجديدة ! .

عاش في ظلال هذا الحلم في زمن المنفى .. إلى أن استيقظ ذات

صباح فزعاً .. لقد انهار الحلم وتحطم .. أوكرانيا شقت عصا الـ
على أفكاره .. رفرف علم استقلالها فوق روايتها .. مات الـ
السوفيتى .

الأحزان تغمر قلب الكاتب العجوز وهو يخط سطور روايته الأـ
« العجلة الحمراء » .. لا يزال قابلاً فى منفاه .. كان يمنى النفس بالـ
إلى أرض الوطن .. لكن فى أى مطار تهبط طائرته ؟ جمهوريته الفاء
تمزقت أوصالها قبل أن يشيد فيها حجراً .. وشتاء هذا العام سماؤه ما
بغيوم كثيفة من التعاسة .. وعواصفه الهوجاء لن تمطر سوى الهمو

تقرب العاصفة من أسوار الكرملين .. لكن جورباتشوف يـ
تعويذة قديمة عليها تنقذه من الرياح الصاخبة .. « يا قوم احذ
الكارثة .. إذا فتت الاتحاد القديم » .. لا يهتم أحد بما يقول .. فـ
واقفون .. واجمون .. منذ ساعات فى طوابير الخبز الطويلة رثـ
أوكرانيا يقول له : يا سيدى أنت تغرق فى أحلام اليقظة .. الـ
السوفيتى قد مات « ولا عزاء فى الكرملين » !

أيها الكاتب الكبير .. جورباتشوف حقق بجسارة كثيراً من رؤـ
وأحلامك عن الحرية وهو يدخل الآن ردهات التاريخ وعلى صدره وهـ
الإصلاح والديمقراطية وفى يده معول هدم الإمبراطورية وهو لا يزـ
فوق خشبة المسرح ... ولكن لابد من إسدال الستار على هذا المشـ
الأخير ..

١٩٩١ / ١٢ / ٢٧ *

سونيا .. والأمل !

عندما بلغ السادسة عشرة من عمره .. كان عليه أن يمشى فى دروب
يا الوعة وحده ... أبوه كان من فقراء الناس يؤرقه توفير قوت الأبناء
تة وزوجته .. عندما أفلست تجارته اضطر إلى الهرب من قريته مع
د أسرته .. حتى لا يلقون به فى السجن بسبب ديونه .. كابد الفتى
ن اللحظة المترعة بالأسى والحزن ... لكنه كان عنيدًا . فلم يفرق
دوامتها الموحشة .. سبج بإرادة خارقة ضد تيار التعاسة .. حتى
مل ذات يوم إلى شاطئ آمن قبل أن يختطفه ملاك الموت وهو فى
بعة والأربعين من عمره ..

تجربة حياته الفظة .. لم تفرخ فى وجدانه الغلظة ولا ظلمات
حقاد .. انبثقت فى أعماقه شفافية تحنو على الناس ... وبارقة أمل
تنطفئ فى حياة أفضل .. تمسح يومًا دموع سونيا والخال الطيب ..
ظلا يعملان طوال خمسة وعشرين عامًا فى مزرعة الأسرة حتى
را حياة ناعمة وهائلة للاستاذ قريهما الذى يعيش فى المدينة .. عندما
يل الأستاذ على المعاش .. عاد ليعيش معهما فى المزرعة .. عندئذ
تشفا أنهما كانا يحرثان فى البحر .. وأنهما أهدرا حياتهما عبثًا ..
ستاذ كان شخصًا تافهًا مغرورًا وأحمق .

هذا هو عالم « أنطون تشيخوف » .. الكاتب الروسى المبدع ...
بد القصة القصيرة فى الدنيا كلها .. ومؤلف مسرحية « الخال فانيا »

وغيرها .. ظلال هذا العالم الملبد بغيوم الأحزان والأشجان يجيم
روسيا الآن .. خرجت بعد سبعين عامًا أو يزيد من تحت العباءة الثا
لشعارات الخديعة والحلم الضائع .. لتطاردها هواجس الجنة الجذ
الموعودة .. دونها طريق طويل من الآلام ..

الكل يتربص الآن .. فالموقف لم يحسم بعد .. يلتسين يمشى
ردهات قصر الكرملين .. يحذر من انقلاب قادم .. تحاصره نذر الفؤ
والسخط .. كبار أعوانه ينفضون بسرعة من حوله .. نائبه يقفز
قاربه وهو يقول : « إنهم يشنون حرب إبادة اقتصادية ضد الش
الروسي » .

تتجمع فى الشوارع الخلفية الآن قوى جديدة مغامرة .. بعضها يت
عباءة الفاشية .. ويتخفى البعض الآخر بقناع النعرة القومية .. يتأه
لاقتحام أبواب الكرملين خلف دبابات الجنرالات .. الشيوعيون الج
تظاهروا بالآلاف .. يطالبون بعودة الإمبراطورية .. زعيم الاتجاه الفاش
لا يتجمل يلوح بدانة المدفع وحد السيف لاستعادة الحدود القديمة
تشيخوف .. أوراق الأحزان اليابسة تغمر الشوارع والمدن .. ت
الكآبة .. تحاصر سونيا والخال الطيب رمزى النبل والحكمة والأحباط
لا مهرب لهما اليوم من الجور سوى بأن تضىء لهما قنديلك ..
حذرًا حتى لا تطفىء عواصف الظلمات الضوء .. والأمل .

شموع الحرية وحكمة «السوبر ماركت» !

شموع الحرية

صمصه غريبة جداً . فقد افتقدت في طفولته الحزينة حنان الأب . وضاع الحب في شبابه . واعتصرته رحلة الحياة فمات بمرض السل في بعين من عمره . وكانت وصيته الوحيدة .. أن يحرقوا كل ما كتب قصص وروايات .

هذا هو « فرانتز كافكا » الذي عاش في براج منذ مولده وحتى وفاته . يمتد به العمر ليشهد تولى الحزب الشيوعي السلطة في كوسلوفاكيا عام ١٩٤٨ . ومن المرجح أنه لم يكن في وسعه أن يور بعين خياله الروائي أن تعترض اللبابات القادمة من موسكو لحرية السياسة التي هبت على براج على نحو ما حدث في الواقع ، يفوق الخيال !

ففي فجر ليلة من ليالي أغسطس ١٩٦٨ اقتحمت القوات السوفيتية ج . واعتقلت زعماءها . ونفتهم إلى موسكو . وكان في مقدمتهم

الكسندر دوبشيك زعيم الحزب الشيوعى وبطل « ربيع براج » ال
ألغى الرقابة على الصحف . وسمح بحرية التعبير فى كل أجهزة الإعلا
وبدأ سلسلة من الإصلاحات السياسية ذات الطابع الليبرالى .

تلك كانت جريمته .

ولكن السوفيت لم يفلحوا فى إقامة حكومة دمية يحركون خيوط
من موسكو . فقد رفض الجميع فى شجاعة نادرة - فى ذلك الز
العصيب والصعب - التعاون معهم . بينما كانت الإذاعات الس
تهاجمهم ليل نهار . ولم يجدوا مفرًا من إعادة دوبشيك إلى الحكم
أن نزعوا زهور الحرية التى أنبتها ربيع براج ! فقد أرغموه . على وفاة
الإصلاحات السياسية .

وما حدث بعد ذلك .. كان مثيرًا وغريبًا . فقد كان ذروة الد
السياسية التى يعجز عن تصورها أى روائى خصب الخيال ، حتى
كان « كافكا » الذى يصف البعض أدبه بأنه « أدب أسود » ومتشاك

ففى مباراة رياضية للهوكى ، فاز الفريق التشيكى على السوفيتي
وخرجت جماهير براج إلى الشوارع لتعبر عن فرحتها . ويبدو
تذكرت الفردوس المفقود لربيع براج ، فرددت هتافات ضد السوفيت

وكان أن صدرت أوامر الكرملين بإقالة دوبشيك وتولى جوستا
هوساك السلطة ليدور براج فى الفلك السوفيتى . ولم يترك موقعه إلا
عامين .. لميلوش ياكش ولكن الفلك السوفيتى يغير مساره . فهو مت

الإصلاح الديمقراطي منذ جاء جورباتشوف إلى السلطة . ويفسر
تحولات بولندا والمجر والمانيا الشرقية وبلغاريا .

فى ظل هذا المناخ الجديد . تحركت جماهير براج لتسترد ربيعها .
ت مسيرات الشموع المضئية فى شوارعها للمطالبة بالحرية وإسقاط
ت الحزب الشيوعى . وبلغت المواجهة ذروتها عندما . انطلقت
الأمن لتواجه نحو ٢٥٠ ألف شخص . تريد أن تطفىء بهراواتها
أصها شموع الحرية التى فى أيديهم .

كان العجوز الكسندر دوشيك بطل ربيع براج يشارك فى هذه
ة الكبرى ولكن رجال البوليس انتزعوه بقوة من وسط الجماهير
التي لم تعرف شخصيته إلا عندما أذيع الخبر صباح اليوم التالى .
بدأت مسيرة جديدة نحو الحرية .

أحزان قديمة !

كان رجلاً بسيطاً من عامة الشعب . وعندما اعتصرته الأحزان موت ابنه . حاول أن يخفف عن نفسه بسرد أحزانه لزيائنه . أحداً لم يستمع إليه . فسرد أحزانه لحصانه . لقد كان يعمل حو وهكذا أفلت من الموت حزناً ... هذه هى قصة تشيكوف إلا الرائعة . لمن أحكى أحزاني .

غير أن أحزان سائق « التاكسى » « هافيل » كانت أكثر تعقيداً أحزان حودى تشيكوف . فلم يجرؤ على سردها لزيائنه . فقد كان فى زمن الخوف ، وحكمته الذليلة الصمت .

ولكن هافيل قرر مثل الحودى ألا تقتله الأحزان فتحدث كثيراً أن يسمعه أحد .. كان يكتب على الورق كل ما يجول بخاطره كان مؤلفاً مسرحياً موهوباً . ولكن زمن الخوف كان يترصد فى بلاده تشيكوسلوفاكيا .

ومشكلة هافيل أن أسرته كانت غنية . فلم يرض عنه الشي عندما تولوا السلطة عام ١٩٤٨ . أيامها كان صبيّاً فى الثانية عشر عمره وعندما دخل سن الشباب لم يسمحوا له بمواصلة التعليم الج و لذلك عمل سائق تاكسى .

وكان فى أوقات فراغه يمارس كتابة المسرحيات وأصبح « فنان

هافيل « مؤلفاً مرموقاً واضطرت السلطات إلى أن تسمح له بالسفر إلى أمريكا في أبريل ١٩٦٨ ليشهد عرضاً لإحدى مسرحياته .

ولكن لم تمض أربعة شهور حتى انطفأت أضواء المسرح في بلاده وعمها الظلام . فقد سحقت دبابات موسكو شموع ربيع براج . وصودرت مسرحيات هافيل .

وعاش مطارداً . يقتحم زوار الفجر بيته ليفتشوا أوراقه . وخلال هذه الفترة الموحشة عمل في مصنع للجنة « للبيئة » ليكسب قوت يومه .

ولكنه تمرد على الخوف والصمت . وأسهم في تكوين جماعة حقوق الإنسان المعروفة باسم ميثاق ٧٧ . ولكن السلطات عاقبته بالسجن لمدة أربع سنوات .

لم تكن هذه هي المرة الوحيدة التي يسجن فيها . فقد اعتقل لمدة أربعة شهور في مايو ١٩٨٩ بتهمة التحريض على الثورة .

وفجأة تغيرت الدنيا وشهدت تشيكوسلوفاكيا لحظة إنسانية فريدة لقد اختفى الخوف وخرجت الجماهير إلى الشوارع تهتف للحرية وأصبح هافيل زعيم المعارضة مرشحاً لرئاسة الجمهورية .

يقول هافيل : لست رجل سياسة ولست خبيراً بمناوراتها . إنني لا أعشق سوى الحرية والمسرح .

لم تعد أحزانه القديمة الآن سوى ذكريات .

حكمة .. «السوبر ماركت» !

طوال شهر أمضاه فى السجن انتظارا لتنفيذ حكم الإعدام لم يشعر لحظة بالندم .. كان مقدامًا وشجاعًا .. رغم أنه كان شيخًا طاعنًا فى السن تجاوز عمره الثالثة والسبعين .. وعندما تمكن أصحابه من رشوة حراسه حتى يهرب .. رفض وتجرع كأس السم دون أن ترتعش يداه . إنه « سقراط » العظيم .. الأب الروحى لكل فلاسفة الدنيا ومفكرىها الكبار .. لقد أنزل ربه الحكمة من فوق عرشها .. وجعلها تمشى فى دروب اليونان وأسواقها ... واتهموه بالترف وإفساد الشباب لأنه جرؤ على أن يفكر .

منذ ذلك اليوم وآلاف من الأبناء النبلاء يمرون عبر بوابة زنزانة سقراط .. لعل آخرهم يعيش الآن فى « قلعة » السلطة فى تشيكوسلوفاكيا .. إنه « فاتسلاف هافيل » الأديب والمسرحى الذى قهر بالكلمات المضيفة جيروت السلطة فى عام ١٩٨٩ .. وهزم بأغصان الديمقراطية هراوات الطغيان ... وأصبح رئيسا هاويًا لا محترفًا .. يتحلق من حوله فى القلعة كوكبة من هواة السياسة منهم الممثلة والمطرب والرسام والمصور السينمائى والكاتب والمحامى .

« هافيل » .. عندما مر خلال سنوات القهر بزنزانة سقراط حيث مكث بين جدرانها الموحشة سنوات أربع .. كان ما يؤرقه كثيرًا ليس قضبان السجن التى تلتف بغلظة حول حريته .. وإنما هذه الدنيا التى

عالت فيها الأكاذيب فسادًا .. وتوارى فيها الصدق وجلا ويأسًا فى
لأحراش النائية .. ولذلك فإن ما يشغل بال « هافيل » هو البحث عن
لصدق حتى يتوجه على عرش الحكمة والسلطة .. هذا طموحه .. أما
رسالته فهي السلام والحب والصفح حتى عن الأعداء القدامى .

عندئذ تضىء أنوار المسرح .. يقول شعبه فى ودّ وتقدير ..أيها
لكاتب الرئيس بلاغتك توثرنا .. لكنها لا تؤمن حاضرننا
ولا مستقبلنا .. لا بد من تطهير البلاد من الأعداء القدامى .. لقد وضعوا
قنعة مخادعة على وجوههم وأفكارهم .. وتسلكوا إلى السلطة الجديدة ..
لم تكشف التحقيقات الرسمية أن عددا من أعضاء البرلمان كانوا يتعاونون
مع جهاز المخابرات القديم ..

المؤلف الرئيس يدرك العقدة لكنه لا يستطيع أن يسدل الستار على
شهد المخاوف والقلق .. التساؤل الذى يرتج له المسرح لم يعد حبكة
لمسرحية السياسية المرتجلة وإنما براعة المؤلف .

لا يزال الشعب يقول .. يا سيدى المؤلف الرئيس .. أنت بارع حقا
فى صياغة الكلمات .. لكن مفردات السلطة قد تبدو عصية يشق عليك
لك رموزها .. لك كل الحب والتقدير ... لكن الطعام ليس وفيرا ..
لك هى المعضلة .. نحن نود أن تفرد طيور الحرية حول سلال القمح
وصوامعه .. حتى نشبع .. لا تجزع إذا خدشت كلماتنا بعضًا من
فكبارك المجنحة فوق غيوم الواقع .

« هافيل » ... سقراط كان يمشى فى الطرقات وفى صحبته ربة

الحكمة .. كانت لا تزال فتاة صغيرة نضرة .. يهرحسها وجلالها عقول
الخلق وأشدتهم .. لكن الزمن تغير .. فتاتك الحكمة لم تعد كذلك ..
لقد انطفأ بريق نضارتها فى عصر « السوبر ماركت » .. لا تحزن ..
« الحكمة » لم تعد الآن مجرد بلاغة المنطق .. وإنما بلاغة السيولة
النقدية !!

حدث ذات ليلة !

لم يخطر على بال الكاتبة المشهورة أن مستقبلها سوف تهدده الكلاب . لأنها كتبت قصة بطلتها قطة . كانت القططة الشرسة توحى لكل من يتفرس ملامحها ، عبر سطور القصة ، بأنها ترمز للحاكم الفرد الذى ينشب مخالف نظامه فى مواطنيه .

ولم تمر ساعات حتى وجدت الكاتبة الرومانية « أنا بلا نديانا » نفسها منفية داخل بلادها . لقد حددوا إقامتها فى شقتها . لا تغادرها ولا يزورها أحد .

كابوس مخيف يؤرق « أنا » طوال الليل والنهار . فذات ليلة توجه رجل إلى فراشه لينام . وعندما استيقظ فى الصباح أصابته حالة من الرعب : لقد تحول إلى حشرة ضخمة . هكذا يصور الكاتب فرانز كافكا فى قصته « المسخ » كابوس السلطة الغاشمة أيا كان اسمها .

« مسخ » كافكا تحول إلى واقع مذهل فى رومانيا فذات ليلة من عام ١٩٦٥ ، تولى فيها تشاوشيسكو السلطة ، نام أهالى رومانيا . وهم بشر . وعندما استيقظوا ذات صباح ، كان الحاكم الفرد قد حولهم إلى مجرد كائنات يحاصرها الخوف .

فى ذلك الوقت كانت ايلينا زوجة تشاوشيسكو لا تكف عن التباهى بأنها « أم الشعب الرومانى » أم شرسة كالقطعة المسعورة تأكل أبناءها

كانت ايلينا تطارد كل امرأة فى سن الإنجاب حتى لا تستخدم أى وسيلة لتنظيم النسل . لأنها تريد لرعاياها المسحوقين أن يزدادوا عددًا . فهم لعبتها . أما هوايتها فكانت غريبة جدًا .. أن يسجل لها عملاء النظام أفلام فيديو سرية للوزراء وكبار المسئولين وهم فى غرف نومهم ! . لو أن كافكا لا يزال حيا لمزق قصته « المسخ » ، لأن تشاوشيسكو وايلينا حولتا العبث واللامعقول من مجرد شطحات خيال بين دفتى قصة إلى واقع مروع .

تمزق هذا الواقع ذات صباح .. أمسك شاعر روماني عظيم بميكروفون الإذاعة وقال للناس ، أكثر كلمات التاريخ إثارة وبلاغة : لقد سقط الديكتاتور وزوجته فى بحر من دماء ٧٠ ألف روماني .

الأشباح تظهر فى الربيع .. أحيانا !

خرج من بيته ذات صباح .. قلبه مثقل بالهموم . يمسك بيده علبة وكان يسرع الخطى حتى وصل إلى مكان لا يرتاده الناس كثيرا . انتحى جانبا فى مكان لا يراه منه أحد . فتح العلبة وسكب منها « بنزينا » على رأسه وملابسه . أشعل عود ثقاب . وجرى . حتى سقط ميتا .

وجدوا ورقة معلقة فى جذع شجرة ومكتوبا عليها الانتحار هو الحرية الوحيدة فى زمن الديكتاتورية .

لم يعرف أحد اسمه حين مات . فهو مواطن عادى . ولكن مشكلته أنه كان مثاليا . فصدمه الواقع المزعج فى عهد الديكتاتور شاوشيسكو وزوجته ، حتى قرر فى لحظة ضعف ، أن يتتحر . كان يظن أن هذه هى الطريقة الوحيدة للاحتجاج !

البوليس السرى داهم منزله . وهدد زوجته بأن تلتزم الصمت . ولم تتكلم إلا منذ أيام . قالت الحقيقة المذهلة التى تروع حتى خيال مؤلف مسرح العبث الشهير يوجين يونيسكو . فهو روماني الأصل . وكان يرى أن شاوشيسكو قد حول رومانيا إلى مسرح حى للعبث واللامعقول .

المشكلة الآن فى رومانيا .. أيها المؤلف المسرحى الكبير .. إن شعب الديكتاتور يطارد الجميع . والخوف من زبانية بوليسه السرى يملأ

القلوب حتى مسئول روماني قال منذ أيام « لقد هددوني بالموت .. في
مكالمة تليفونية » .

كلهم خائفون .. رغم اعدام شاوشيسكو وابيلينا . فخلال محاكمة
كبار المسئولين في البوليس السرى تعمدت كاميرات التليفزيون ألا تصور
وجوه القضاة .. حتى لا يتعرضوا للانتقام ! ويحدث هذا الآن خلال
محاكمة شقيق الديكتاتور .

الخوف والشكوك تملأ القلوب . هذا ما يقوله رئيس وزراء رومانيا .
ويعلل حالة السخط العام بقوله : من السهل أن تنتقل من الديمقراطية
إلى الديكتاتورية في يوم واحد . ولكن الانتقال إلى الديمقراطية يستغرق
وقتاً .

شوارع رومانيا غاضبة . لم تهدأ منذ ثورة ديسمبر . ولم يرضها حتى
اعدام الديكتاتور وزوجته . إن الناس لا يريدون أى رموز في السلطة
من كانوا يوماً في بلاط الإمبراطور .

يقولون هناك : إن الربيع جاء هذا العام مبكراً . ولكن شبح الديكتاتور
لا يزال يورق الجميع .

حالة غريبة في رومانيا : الواقع محموم بالخوف . إنها أعراض
الديكتاتورية اللعينة ليست مجرد نظام فاسد ومفسد ولكنها مرض يقتل
الحلم الإنساني وكل الأمنيات البريئة .

الأمير .. والكلب !

عندما اقترب الرجل من مزرعة الحيوانات التي يملكها ، أصابته دهشة مروعة . كان ما رآه مشهداً غريباً . لقد نصب الخنزير من نفسه حاكماً على المزرعة . وادعى أن صاحبها لم يقوم بدوره . وأهمل في مهمته .

هذه هي رواية الكاتب البريطاني « جورج أورويل » نشرها عام ١٩٤٥ . ويتقد فيها الاستبداد والديكتاتورية . ولم يمتد العمر بأورويل يرى أن خياله الروائي قد أصبح واقعاً فاجعاً في رومانيا . فبعد عشرين عاماً من نشر روايته دخلت رومانيا في دائرة « مزرعة الحيوان » في زمن الديكتاتور شاوشيسكو .

المثير أنه في ذات العام الذي توفي فيه (أورويل) ، وهو عام ١٩٥٠ . رزق الديكتاتور بولي للعرش في مزرعته الرومانية القادمة أسماء « نيقو » . عندما شب عن الطوق كانت ملعقة من ذهب لا تزال في فمه . كان طفلاً مدلاً . ثم شاباً فاسداً .

عرفت الدنيا فضائحه ، ولم يصدقها البعض لبشاعتها . كشفها الجنرال « ايون باسسيا » مدير مخابرات الديكتاتور عندما هرب إلى أمريكا عام ١٩٨٧ . نشرها في كتاب أسماء : الآفاق الحمراء . روى فيه قصصاً مذهلة ، وقائعها تفوق الخيال . لم يقرأها أهالي رومانيا سوى هذه الأيام ، بعد السماح بتداول الكتاب .

الناس لم تدهشهم قصص هذا الكتاب . كانوا قد شاهدوا الحقيقة المروعة .. بعد إلقاء القبض على الأمير « نيقو » . عندما فتشت السلطات قصره الأسطوري ، هال الناس أنه خال من أية لمسة من لمسات الحضارة . لم يلفت النظر فيه سوى صور كثيرة لكلبه « نيو » هذا الكلب كان حبه الأكبر والوحيد . لا غرابة فهو قد تربى فى « مزرعة الحيوان » . فى لحظة الخطر ترك الخنزير الكلب . حاول الهرب فى سيارة فارغة مع جارية من جواربه ! لكنهم اعتقلوه . عندما بدأت محاكمته لم يجد أى ندم لإصداره الأوامر بإطلاق النار على ثوار ديسمبر .

« جورج أورويل » .. أيها الروائي الكبير .. معذرة .. خيالك السياسى رغم روعته يبدو خجولا ومتواضعا . إن المزرعة الرومانية سابقا تذهل وقائعها الخيال .

مصرع .. كاتب !

كان يعلم أن حكمًا سرّيًا قد صدر باغتياله .. التزم جانب الخلد
عنه يقلت من مصير مأساوى كان يبدو محتومًا .. لم يكن سوى كاتب
مرموق هرب من الطغيان فى بلاده .. وبارز بالكلمات الصادقة وحدها
نظاما شرسًا وحكمًا جائرًا .. فأثار غضب الطاغية عليه .

وذات يوم شتوى لم تشرق شمسُه لقي الكاتب مصرعه فى مدينة
الضباب لندن . كان القلق قد استبد به ، وروعته الهواجس .. فخرج
إلى شوارع المدينة ليسرى عن نفسه .. وهناك فوق جسر « ووترلو »
شعر فجأة بالألم حاد فى ساقه . عندما انحنى ليتحسس موضع الألم ..
رأى رجلا غامضًا يلتقط مظلة سقطت من يده .. وقال له فى ود
مصطنع .. « أنا آسف » .

عندما عاد إلى منزله كانت درجة حرارته قد ارتفعت ومات بعد ثلاثة
أيام . أكد الأطباء أن طلقة سامة فى حجم رأس دبوس الإبرة نفذت
فى ساقه وقضت عليه .

هذه هى مأساة الكاتب البلغارى « جورجى ماركوف » كان
واحدًا من ألمع المثقفين فى بلاده .. لكنه ضاق ذرعًا بنظام الطاغية
« جيفكوف » .. فهرب عام ١٩٦٩ وكتب عن « الحقيقة التى
قتلوا » وفضح نظام الطاغية الذى عاث فى بلاده فسادًا منذ تولى

السلطة عام ١٩٥٤ .. وظل قابضاً عليها وعلى رقاب مواطنيه لمدة ٣٥ عامًا ..

اغتيال الكاتب ظل لغزاً لا يتجاسر أحد على محاولة كشف أسرار السياسية .. حتى سقط الطاغية في نوفمبر ١٩٨٩ .. اقتلعت راية الديمقراطية التي قوضت النظم الشمولية في أوروبا الشرقية حدود إقامته .. وقدموه للمحاكمة في فبراير ١٩٩٠ بتهمة الفساد واستغلال السلطة وإثارة العداة الطائفية .. وتخريب البلاد ..

حاكمة الطاغية لا تزال مستمرة .. غير أن تهمة جديدة تلاحقه هذه الأيام هي : إصداره الأوامر باغتيال الكاتب « ماركوف » وهي تهمة تشير الوقائع التي أعلنت حول ملابساتها المريبة والغامضة أن « جيفكوف » ضالغ فيها ولن يفلت من العقاب .

الدائرة تضيق حول رقبة جيفكوف .. وإذا كان قد استطاع أن يبرأ خلال محاكمته بنفيه للتهمة المنسوبة إليه حول استغلال النفوذ .. فلا وقائع اغتيال الكاتب سوف تدينه . يقول المحققون أن عشرة أشخاص في مقدمتهم الطاغية متورطون في مقتل ماركوف .

« جيفكوف » القاتل والطاغية .. عندما سقطت رماح السلطة من يده .. لم يستطع أن يردد شعاره الديكتاتوري : « ينبغي سحق المعارضة مثلما نسحق الأفعى » .. لكنه نظر إلى الوراء في يأس وغضب وقال « الشيوعية كانت خطأ جسيماً » كلمات يرثى بها نظامه القبيح .. ولكنها تدينه ولا تبرئ ساحة ..

« جورجى ماركوف » موكب كلماتك الصادقة يحاصر الآن
طاغية .. يصفع نظامه .. يزف عرس الزمن القادم .. زمن لا تقتل
به الحقيقة .. ويحيا الناس فى ظلالها النورانية بلا أقنعة أو خوف .

الفتى الأحق وصمت إسماعيل !!

أغنية .. على الجسر !

كان والده فلاحاً من فقراء القوم . أما أمه فكانت شابة ذكية الفؤاد .
صلبة الإرادة . عندما مات أبوه فجأة كان طفلاً فى الثانية من عمره .
لم تستسلم أمه لقوة القدر . حملت وليدها الصغير وشدت الرحال إلى
بيت أسرته البعيد . كابدت ألواناً فظة من العناء حتى علمته .

ذات يوم انفطر قلبها حزناً .. عندما اعتقلت سلطات الاحتلال ابنها
الشاب بتهمة عشق الوطن .. حدث هذا أثر إطلاق الرصاصة التى أشعلت
أول حرب عالمية . رصاصة أطلقها شاب من أبناء بلده « البوسنة »
على ولى عهد النمسا . قامت الدنيا كلها عام ١٩١٤ ولم تقعد إلا بعد
أربعة أعوام ثقيلة بالدم والدمار .

عندما أطلقوا سراحه .. بدأ يسطر أولى كلماته فى ديوانه « يوميات
غنائية » هذا هو الروائى اليوجوسلافى « ايفو اندريتش » . كان الوطن
محربه .. واحة عشقه ، فردوسه ودينه ، سجل ملحمة تاريخه بكل

أفراحها وأتراحها فى رائحته « جسر على نهر درينا » .. يقول من فوق
الجسر « لا تيمم وجهك عشقا أو حبا أو فكرا سوى فى اتجاه الوطن .
عندما قال ذلك كان الوطن تحت راية « تيتو » يرد جحافل الغزو
النازى .. 'ان الحرب العالمية الثانية . عندئذ بادرت السلطات بتحديد
إقامة « ايفو اندريتش » فى شقته الصغيرة .. ظل حبيس جدرانها حتى
عرفت راية يوجوسلافيا فوق جسر نهر درينا الجسر يصل الآن كل
أنحاء الوطن . عبر من فوقه شامخا ليحصل على جائزة نوبل للآداب
عام ١٩٦١ . ثم مات قرير العين عام ١٩٧٥ .

« تيتو » كان قد وعى موعظة الجسر . أدرك بثاقب فكره أن الوطن
يموت لو ارتد الأبناء يوما إلى رحم القبيلة .. ليولدوا من جديد وهم
شهبون السيف فى وجه كل الجيران .. أبناء الوطن الواحد ..

هذا ما حدث فى يوجوسلافيا .. رغم وصايا « تيتو » بالقيادة
الجماعية .. لكنهم هناك قرروا أن يدفنوا وصاياه مع بقايا جثمانه !!
شهبون الآن سيوفهم القبيلية . شبح الحرب الأهلية يطل برأسه ..
لا يبالون .. يهمسون فى هوس أحق .. الوطن يحتضر .. ارفعوا الأعلام
الجديدة فوق مضارب القبيلة .. يمارسون طقوس الموت .. وهم
لا يدركون أن من ينشطر قوميا .. ينتحر جماعيا .

« ايفو اندريتش » .. تذرف دموعك من فوق جسر نهر الوطن حزنا
وكمدا .. لم يخطر ببالك يوما هذا المشهد المستحيل .. أن يلعب الأبناء
عبة الأعداء !!

« ايفو » يستدعى خيالك .. تحت وطأة آلامك .. من إشراقات
المستقبل .. شاباً يقبض قلبه على حب الوطن .. كالقابض على الجم
يقول للجميع .. اوقفوا اللعبة الحمقاء .. قبل أن يجرفنا الطوفان .. ولز
ترى مضارب قبائلكم يوماً علماً !

الفتى الأحمق !

ذات صباح استبد الجموح والعناد بفتى صغير .. توجه غاضباً إلى أمه .. طلب منها أن تخبره أين يعيش أبوه حتى يتأكد من انتسابه إليه . حاولت الأم عبثاً أن تثنيه عن مطلبه . لكنه أصر .. فرضخت على كره منها . وعندما عثر على والده لم ينكره ، ولكن الفتى خامرته فكرة حمقاء . طلب من أبيه أن يقود بدلا منه مركبة الشمس من المشرق إلى المغرب لتؤكد الدنيا من انتسابه إليه . حذره أبوه . ولكن الفتى الأحمق لم يتراجع عن غيه .

عندما امتطى المركبة لم يستطع السيطرة عليها اصطدمت بالكواكب الأخرى .. أحدث دماراً كونياً مروعاً . عندئذ تضرعت ربة الأرض إلى رب الأرباب « زيوس » لينقذها من الفناء .. استجاب لها بإطلاق صاعقة أهلكت الفتى وعادت المركبة إلى أبيه إله الشمس « أبوللو » .

هذه أسطورة يونانية قديمة تضيء سطورها بالرموز والدلالات الموحية المتجددة .. البشر فى هذه الدنيا يلعبون أحيانا لعبة الحماقة المدمرة . يعبثون بمسارهم ويلهون بمصيرهم .. دون تبصر أو بصيرة !

يحدث هذا الآن فى يوجوسلافيا .. يتنازعون ليقود كل زعيم قبلئ منهم « مركبة أبوللو » لا يهم أن تضطرب البلاد فى أتون الأزمة .. وعندما بدأت نذر يوم القيامة هناك لم تتضرع ربة الأرض للجيش الاتحادي

لينقذها من الهلاك . فقد كانت تدرك أن جنرالاته يتدثرون بعبادة جمهورية الصرب .. وعندما وقعت الواقعة وتدخل الجيش قال العارفون ببواطن الأمور « لقد خرج المارد من القمقم ولن يعود إليه » إنه انقلاب عسكري غير معلن !

يوجوسلافيا^(١) تكابد محنة العبث القومي ومخاطر الانزلاق موتا من حظائر القبلية .. يضطرب قلب أوروبا جزعاً .. وتهرع لرأب الصدع .. تتابها المخاوف من أن تفتك جرثومة القبلية الجديدة بأقطار أوروبية أخرى .. يقول الراوى وهو يقرأ من كتاب التاريخ .. لم يكن ثمة مفر من الحماقة لقد تماسكت قبائل يوجوسلافيا بعد موت زعيمها التاريخي « تيتو » عام ١٩٨٠ .. لم يكن الأمر معجزة .. ذلك أن الحرب الباردة كانت لا تزال مستعرة .. ولكن ما أن وضعت الحرب أوزارها حتى كان حتماً أن تتفجر المتناقضات وينفطر العقد .. وأن يضرب الزلزال القبلي كل أنحاء البلاد .

يا حكماء العصر .. نعلم أن هذا رأيكم .. ولكن ما الحل ؟ إن الخطب جسيم وال هول وخيم ... ولم يعد فى مقدور « زيوس » رب الأرباب فى الأساطير أن يمنع الكارثة .. لم يعد فى وسعه رغم جبروته وحكمته القديمة أن يناطح أجهزة الكمبيوتر فى غرف عملياتكم المغلقة والمعلق على جدرانها الأسمتية خرائط الدنيا .

(١) تمزقت أوصال الوطن اليوجوسلافى بالفعل وأعلنت جمهورياته استقلالها . وقد نشرت هذه الحكاية بتاريخ ١٩٩١/٧/٦ .

معدرة « زيوس » .. لا تذرف الدموع عجزا لقلة حيلتك الآن ..
يكفى أنك أنقذت دنيا الأسطورة من عبث الفتى الأحمق .. ولكن حمقى
هذا الزمن من ينقذ الدنيا منهم ؟

صمت: إسماعيل !

منذ تمكن من الفرار من بلاده .. اختفى بعيداً عن الأنظار فى منفاه الجديد .. يجتر ذكريات الزمن الماضى فى منزل لا يعرف أحد عنوانه .. تطارده بين جدرانهِ عقدة ذنب لم يراً من جراحها النفسية الغائرة فى ذاته .. إنه كاتب موهوب وذائع الصيت .. كانت مبيعات رواياته هى المورد الوحيد من العملة الصعبة لبلاده .. كان وقتها صديقاً حميماً للحاكم المستبد .. يمارس تحت عباءة حمايته قدراً من حرية التعبير لم يكن فى وسع أحد غيره أن يحظى بها . ولعل هذا سر إبداع كتاباته وتألقها .. إنه الروائى الألبانى « إسماعيل قدرى » .. عندما غربت شمس حياة صديقه الطاغية « أنور خوجه » عام ١٩٨٥ .. تملل وحيداً تحت وطأة نظام خليفته « رامز عاليا » .. ولم ينضم لحركة المعارضة الديمقراطية الوليدة .. واكتفى بالفرار .

ولم يقصد « إسماعيل » أن يشق بهربه طريق الخلاص لمواطنيه الذين أرهقهم حكم الطغيان إلى حد الرعب من الوطن ذاته ! فلم يحدث فى تاريخ الدنيا هجرة جماعية مأساوية مثل هجرة شعب البانيا هذه الأيام .. آخر موجاتهم المهاجرة تنطوى على دراما إنسانية مروعة .. بدأت فصولها الدامية عندما سرت الأنباء .. فى الشوارع بأن سفينة ايطالية رست على الشاطئ .. عندئذ تدافع ١٥ ألف شخص .. اقتحموا السفينة العتيقة أرغموا قبطانها تحت تهديد السلاح على الإبحار بهم إلى ايطاليا .. كانوا

يتمنون النفس بالفرار من الجحيم والهبوط فى أرض النعيم .. لكنهم
عندما هبطوا على شواطئ المدن اللامعة .. لم يرحب بهم أحد .. أشهر
رجال الشرطة البنادق فى الوجوه الجائعة .. قالوا لهم ... عودوا من
حيث أتيتوا .. لا مكان لكم بيتنا .

المشهد الايطالى يذكر الناس بجحيم شاعرهم العظيم « دانتي » فى
رائعته « الكوميديا الالهية » .. غير إن جحيم دانتي لم يكن أبديا كان
مرحلة يتطهر بعدها البشر من آثامهم وشروهم ثم يدخلون إلى دنا
الفرديوس .. لكن جحيم المهاجرين الالبان لا مخرج منه ولا مفر ..
وتبلغ المأساة ذروتها عندما لوح المهاجرون باللجوء إلى العنف حتى
لا يعودوا إلى بلادهم بالقوة عندئذ تفتق ذهن شيطانى عن خدعة ..
قالوا لهم استعدوا للرحيل إلى بلد غريب آخر .. وتهللوا فرحاً .. غير
أن الطائرات شحتهم إلى البانيا .. ولم يفتنوا هول الخدعة إلا عندما ..
وجدوا أمامهم عند مهبط الطائرات رجال البوليس السرى يحيطون بهم
من كل جانب .. إنه الجحيم لا مهرب منه حتى إشعار آخر ..

« جحيم دانتي » الجديد .. يشاهده « إسماعيل قدرى » على شاشة
التليفزيون فى شقة مجهولة العنوان فى باريس .. لم يذكر لأحد فى
المدينة التى تختفى أجهزة اعلامها بهمساته إن المأساة تروعه .. لقد التزم
الصمت رغم بلاغة كلماته وطلاوة عباراته .. عله كان يحصى أرباحه
من كتابه الجديد « ربيع البانيا » .. معذرة إن بعض الظن إثم .. ولكن
صمت « إسماعيل » هو الإثم الأكبر ..

١٧ / ٨ / ١٩٩١

اعترافات ... رامز !

علمته أمه القراءة ... فتحت أمامه حروف الكلمات كونا رجا يفيض
بالسحر والعذوبة ... وحلق على أجنحة الخيال وهو يقرأ رائعة الشرق
« ألف ليلة وليلة » لكنه سرعان ما هبط على أرض الواقع الموحش ..
كان لا يزال فى الحادية عشرة من عمره عندما اضطرت الدنيا من
حوله .. وبدأ رحلة العمل الشاق لكسب قوت يومه .. فقد سجنوا
والده بسبب ديونه .. ودخلت عائلته معه وراء القضبان .. امضوا أربعة
شهور لم تشرق عليهم الشمس !

لم تبرأ ذاته من عنابات هذا المشهد الفاجع والمفجع .. لكنه فطن
إلى أنه لا خلاص للإنسان فى زمن التحول الصاخب سوى بعزف
أتشودة العدل .. إنه « تشارلز ديكنز » الروائى البريطانى المبدع ..
كانت بلاده آنذاك تخرج من ليل القرون الوسطى وحكم الاقطاع ...
لتدخل زمن الثورة الصناعية ... بكل ما تفرزه من تناقضات اجتماعية
جائرة ومروعة ... هذه الدراما التاريخية فى تحولاتها العاصفة اهمته
رواياته الكبرى « اوليفر تويست » و « ديفيد كوبر فيلد » وقصة
« مدينتين » وغيرها من روايته التى أضاءت للمفكرين فى زمانه
رؤيتهم للدنيا .

هذا العالم القديم الذى أرق ديكنز لا يضارعه فى بشاعته سوى الواقع
الأسطورى للنعاسة فى البانيا ... الناس هناك تستعصى عليهم كسرة

الخبز .. يقفون فى الطوابير الطويلة ثلاثة أيام متتالية دون أن يحصلوا على ما يقيم أودهم من الطعام ... عندما خرجوا من خلف أسوار عزلة الديكتاتور « أتور خوجة » تبينوا أن سنوات حكمه أخرجتهم من تاريخ الدنيا .. يذكرهم العالم اليوم بأنهم أفقر فقراء أوروبا .. وأشدّهم حزناً وضياءً .

عندما مات الديكتاتور عام ١٩٨٥ .. كان الزمن الجديد قد بدأ رحلة التحولات الكبرى .. كسرت أحجار سور برلين عام ١٩٨٩ نوافذ قصر خليفته « رامز عاليا » .. خرج أهالى البانيا إلى الشوارع .. أملهم الوحيد أن يهربوا من أصفاد الطغيان .. منذ أيام وخزت بطونهم الخاوية آلام الجوع .. اقتحموا الخوانيت أخذوا منها ما أخذوا وحطموا ما حطموا ..

لم يهلع من روعهم وغضبهم اعترافات رامز ... يقول : إبنى استحق القليل من اللوم على فظائع نظام خوجة ... ثم يضيف بالحرف الواحد .. اعلم أن كرسى السلطة يعصمنى من الاعتقال والمحكمة .. ولذلك لن أبرحه إلا عندما تنتهى مدة رياستى عام ١٩٩٥ .. وعندما يكتمل التحول الديمقراطى ! .. الانتخابات الحزبية الجديدة جرت فى ألبانيا يوم ٢٢ مارس الماضى ... تصارع فيها الشيوعيون القدامى والديمقراطيون الجدد^(١) .

(١) انتصر الديمقراطيون .. وأرغم رامز عاليا على تقديم استقالته ..

« تشارلز ديكنز » رغم رحيلك منذ زمن بعيد إلا أن أطيايف عالمك
القديم يعود .. فهل تنسخ سطور رواياتك من جديد .. الدنيا الآن يبرز
مفترق طرق جامعة .. الخلق فيها تعصف بهم أحلام هوجاء .. للثراء
بلا عناء .. هل تقول لهم أن دروبهم لن تكون آمنة .. حتى تثبت على
جوانبها أشجار العدل والحكمة ..

أسطورة الماضي الجميل ولحظة العناق !!

أسطورة الماضي الجميل !

انتظروا طويلا على الشاطئ ، استبد بهم اليأس لأن السفن لم تأت لأول مرة منذ عشرين عامًا . ليس أمامهم سوى أن يشدوا الأحزمة على البطون . وعلى الرجال ألا يحلقوا ذقونهم . فلم تأت شفرات الحلالة سيوتنيك من الاتحاد السوفيتي .

على ذات هذا الشاطئ الكوبي الجميل رست ، منذ خمسة قرون ، سفينة . لم يكن في انتظارها أحد . كان عليها كريستوفر كولومبس مكتشف الدنيا الجديدة فتحت هذه السفينة الطريق أمام إسبانيا لاستعمار كوبا سنوات طويلة . وقاد سبارتكوس « الكوبي » ذات صباح ، ثورة العبيد ضد المحتل . ولكن الثورة قمعت بعنف ووحشية .

شاعر كوبي شجاع ، يكتب قصائد رومانسية للحب وللوطن ، قاد بعد سنوات ، ثورة أخرى ولكنه قتل في معاركها . أنه « خوزيه مارتى » الأب الروحي لفيدل كاسترو قائد ثورة كوبا .

كاسترو تتجاوز أسطوره ، أسطورة الشاعر المحارب مارتى . عندما كان فيدل طالبا فى الجامعة بدأ مسيرته الصعبة لتحرير كوبا من الديكتاتورية والتخلف . محاولته الأولى فشلت عام ١٩٥٣ عندما حاول الاستيلاء على قلعة عسكرية . حكم عليه بالسجن .. عندما أطلق سراحه إلى المكسيك . هناك التقى بالأرجنتينى الثائر جيفارا . عادا معا إلى كوبا سرا عام ١٩٥٦ ، على متن سفينة قديمة . كان معهما ١٢٠ مقاتلا . عندما رست سفيتهم على الشاطئ . وقع الرجال فى كمين .مزقت طلقات الرصاص أجسادهم .

لم ينج بمعجزة سوى عدد قليل منهم .. هربوا إلى جبال سيرا مايسترا .

بعد حوالى عامين من حرب العصابات ، هرب الديكتاتور باتيستا إلى أمريكا ، بعد أن قتل ٢٠ ألف كوبي . وتولى كاسترو السلطة . وبدأ رحلة تأكيد استقلال بلاده . وتحدى الجار الأمريكى القوى . زادت شعبيته . وتألقت الأسطورة . ولا يزال شعب كوبا ينظر إلى كاسترو حتى الآن باعتباره البطل القومى رغم المتاعب الاقتصادية .

الوطنية هناك تطفئ مشاعرها الجارفة على أى عقيدة أيديولوجية . إنها طوق نجاة كاسترو حتى الآن من طوفان التغييرات الديمقراطية الذى يجتاح أوروبا الشرقية .

منذ أيام قال كاسترو . « على جزيرتنا أن تفرق فى البحر قبل أن تتخلى عن علم الثورة والاشتراكية » .

فيدل .. يا بطل أسطورة الماضي الجميل ، الواقع الآن أكثر تعقيداً ،
فالخيز لم يعد دقيقه يأتي من موسكو . ولم تعد دول أوروبا الشرقية الشقيقة
« سابقاً » . قادرة على مد يد العون .

فيدل .. البحر من أمامك .. لم تعد تأتي منه السفن السوفيتية ، والعدو
من ورائك .

ما العمل .. والحزب الشيوعي السوفيتي الشقيق « سابقاً » .. قرر
إنهاء سيطرته على السلطة بعد ٧٢ عاماً لم تعد مظلمته الجديدة ثقيل
من العواصف . لم يبق في كوبا سوى أسطورة الماضي الجميل .
والخيز في هذا الزمن الصعب يتحدى الأساطير .

العجوز .. والكهف !

عندما ضاقت به سبل الرزق لأكثر من ثمانين يوماً .. لم يئأس الصياد العجوز .. أصر على الابحار بقاربه العتيق فى مياه الخليج .. كان يمنى النفس بصيد ثمين .. وحالفه الحظ بعد عناء .. اصطاد سمكة ضخمة . غير أنه فقدها وهو فى طريق عودته إلى الشاطئ . فقد هاجمت أسماك القرش سمكه .. التهمتها تماماً .. لم يبق منها سوى هيكلها العظمى الضخم !

هذه هى ملحمة « العجوز والبحر » .. رائعة الكاتب الأمريكى العظيم « ارنست هيمنجواى » .. لعله استوحى فكرتها من عشقه لكوبا وخليجها وشواطئها الجميلة .. وقد نشرها عام ١٩٥٢ . وحقت له شهرة عالمية مدوية . واقتنص بها جائزة نوبل للآداب بعد ذلك بعامين . أسطورة الصياد الكوبى العجوز « ستياجو » لم تستمر وحدها سوى سبع سنوات .. فقد زاحمتها أسطورة أخرى لشاب اسمه « فيدل كاسترو » .. استطاع « فيدل » أن يفلت بالسمكة الكوبية من براثن حاكم جائر .. كانت دكتاتورية « باتيستا » تنهش فى كوبا مثلما نهشت أسماك القرش سمكة « ستياجو » .

فى بدايات حكم كاسترو غدت كوبا حلماً يهز وجدان الكثيرين فى أمريكا اللاتينية .. الديكتاتورية تختضر .. والحرية قادمة .. لكن الانتظار يطول .. لم تأت إلى شواطئ كوبا سوى السفن السوفيتية وهى

تحمل شحنات من البترول والقمح ويبروقراطية الحزب الواحد وكتب لينين وماركس .

وتمر السنوات .. ويتحول الحلم إلى كابوس مروع .. يخترق الأمنيات .. ويجهض الأفكار .. ويلتهم الأصدقاء القدامى .. « كاسترو » وحده يمتلك خزائن الحكمة ونواميس بيروقراطية الحزب الواحد .. وعلى الآخرين أن ينصاعوا .. أو يرحلوا هرباً إن استطاعوا الإفلات من المصير الموحش لسמكة العجوز ستياجو .

« كاسترو » يتلقى شحنات موسكو طوال أكثر من ثلاثين عاماً .. وبها يناطح الجار الأمريكي .. ولم يخطر بباله أن طوق نجاته قد لا تأتي به السفن السوفيتية ذات يوم !

ولذلك استبد الفحول بالعجوز « كاسترو » عندما لم تأت رياح أفكار جورباتشوف الجديدة بما يشتهي .. عندئذ هرع إلى كهف الشعارات القديمة يستلهم منها بلاغة الخديعة ... لكنها لم تصمد طويلاً أمام وهج التحولات الديمقراطية التي بدأها الرفاق القدامى ..

وازداد « كاسترو » ذهولا .. عندما رشقته صحف موسكو بالكلمات اللاذعة والموجعة .. فضحته إقايلا .. قالت إنه يمتلك ٣٢ منزلا .. ويتولى حراسته الشخصية أكثر من ٩ آلاف شخص .. وزادت الطون بلة من حوله بتأكيدها إن اقتصاد كوبا مثل شخص معوق منذ طفولته .. حكمت عليه الاقدار بالاعتماد على « عكاز » المساعدات الأجنبية .

يفطن « كاسترو » بعد عناد ومكابرة إلى أن الزمن تغير .. يخرج
ملومًا محسورًا من كهف شعاراته القديمة .. يقول وهو يرثى نظامه ..
إن الرفاق القدامى انفضوا من حوله .

« كاسترو » .. لا مفر .. ولا مهرب .. أسطورة الماضي لم تطرح
تمرا .. تحولت إلى شجرة عجوز يابسة تساقط منها أوراق الحزن
والأسى .. في دنيا الأرقام لا تتألق حروف الكلمات إلا إذا تفتحت
أكامها عن زهور الحرية .

العصفور .. وإلهة الحب !

منذ فترة .. وهو يعاني من مشاعر مريرة من الحزن والأسى . يشعر كأن الأيام القادمة تعاند طموحه . لقد صنع يديه ومعاناته تمثالاً جميلاً للحرية . ولكنه لم يعثر في زمن التكنولوجيا على « فينوس » إلهة الحب في الأساطير اليونانية . لتحقيق أمنياته . لقد رقت لحالة الفنان « بيجماليون » عندما استعطفها بصلواته ودموعه فجعلت تمثاله الرخامي الجميل فتاة تنبض بالحياة والحب .

.. « ليخ فانوسا » .. هو هذا الرجل الحزين الآن في بولندا يشعر بأن تمثاله الجميل يخذله . ربما وقع في غرام غيره .. يتذكر أنه خرج ذات صباح من عام ١٩٨٠ . وقد وضع رأسه على كفه . ترك أطفاله الثمانية لمستقبل غامض . لم يستطع رغم براءتهم وخوفه عليهم أن يقاوم نداء الوطن والحرية .

أطلق صبيحة التحدى الأولى في وجه النظام الشيوعي في بلاده . رجع صبيحته كان مولد أول نقابة عمالية مستقلة في البلاد الشيوعية . لم يستطع النظام الشمولي كتم نداء الحرية عندما فرضت الأحكام العرفية واعتقل فانوسا .

قال صوت السلطة بسخرية : « العصفور يريد أن يصبح نسرا » . زاد غضب الجماهير .. وحاصرت الأزمة السلطة . عندما ناورت بلعبة الانتخابات . وقعت بها الواقعة .

فاز أنصار العصفور . فى وقت كانت فيه نسمات من الحرية تهب من موسكو . وجاءت أول حكومة غير شيوعية فى بولندا فى أغسطس ١٩٨٩ ورفض فاونسا أن يصبح رئيسا للوزراء . آثر أن يبقى زعيماً عماليا . لم يكن يدرك أن سور برلين سينهار بعد ذلك بحوالى ٣ شهور . فاونسا يعيش معظم أيامه فى منزله الجديد الكبير . يشعر أن الأيام تفلت منه . ما هكذا ينبغى أن يعيش أبطال الديمقراطية . لم يدد قلقه تعاقد هوليوود معه على تحويل قصة حياته إلى فيلم سينمائى .

العصفور لا يريد أن يتعد عن المسرح السياسى . لقد كان النجم الوحيد اللامع فوق خشبته طوال سنوات . ولذلك قرر أن يرشح نفسه للرئاسة . وهو قرار يثير الجدل بين أنصاره وخصومه . يقولون إنه يعاني من شعور بالحسد من فاتسلاف هافيل الكاتب التشيكى الذى أصبح رئيسا ولذلك رفض أن يقابله عندما زار بولندا مؤخرا .

أيها العصفور الحزين .. عليك أن تصبح نسرا ، حتى تحلق عاليا .. فاما أن تقف على قمة الدنيا ، أو أن تلقى حتفك السياسى . « وفينوس » .. لن ترق لحالك . فقد ولى زمن الأساطير .

لحظة .. العناق

ذات يوم أرغمت الظروف على الرحيل من وطنه .. كان يريد أن يضم لحركة المقاومة محاربا من أجل الحرية .. لكن اعتلال صحته حال دون امتشاقه السلاح .. والكر والفر .. كان كل من حوله يتوقع موته في أية لحظة .. لذلك أقنعة أقرانه بالرحيل .. وكلفوه بمهمة صعبة .. أن يجعل الدنيا دائما تذكر اسم بلاده .. وأعطوه حفنة مقدسة من تراب الوطن .. لم يخلد أمنياتهم .. فقد أبدعت موهبته موسيقى عبقرية زلت وجدان الخلق ..

إنه « شاعر البيانو » الفذ « فردريك شوبان » .. خلد بموسيقاه الباهرة المبهرة اسم بلاده بولندا .. أغنياتها الشعبية كانت مصدر إلهامه الأول الأخير .. عندما انطفأ سراج حياته في باريس .. كان في الأربعين من عمره .. دفنوا جسده في ثراها .. ونثروا على قبره تراب أرض وطنه .. أما قلبه الذي نبض بحب بلاده فقد حنطوه ودفنوه تحت شجرة رفة الظلال في وارسو ..

وطن شوبان منذ ذلك الزمن البعيد لم يعرف سوى الحان الحزن لأسى .. يبحث دائما وأبدا عن لحظة سرمدية أبدية .. لحظة عناق ندية والخبز ... عندئذ يبدأ زمن المدن الفاضلة وتضيء قناديل البهجة وحية حضارة العالم ..

ظن الناس البسطاء في بولندا يوما في أعقاب الحرب العالمية الثانية

أنهم على مشارف وطن الحلم .. وأن ديبابات « ستالين » التى اجتاحت أوروبا الشرقية ستحرث الأرض لتثبت ثمار العدل .. لكنهم لم يحصلوا سوى القهر .. قلب شوبان يتوجع كمدا وحسرة .

لكن شجرة شوبان لم تذبل أوراقها رغم قحط الأرض من حولها .. تسلقها ذات يوم من عام ١٩٨٠ شاب بولندى جسور .. وأعلن يادة الأول عن الحرية ... التف الناس حول « ليخ فاونسا » .. شكلوا نقاباً مستقلة اسمها « تضامن » .. طريقها إلى السلطة كان عاصفاً ودامياً . لكن بشائر الانتصار لاحت فى الأفق عندما أطلق « جورباتشوف » من فوق قمة الكرملين رياح الديمقراطية التى عصفت بالنظم الشمولية . التاريخ فى بولندا فتح أبوابه لحلم الحرية المطارد .. فاونسا يعتلى العرش الجديد .

بولندا تهرع إلى فصم أواصر عراها بالماضى .. تطيق « العلاء بالصدمة » للتخلص من آثاره والتحول السريع إلى اقتصاد السوق . ينطلق قطار فاونسا بأقصى سرعته .. يخلف ورائه على محطات البؤس أكثر من مليونى عاطل . ومليون آخر فى الطريق .. يزداد الطين بلة أ الحوانيت تحولت إلى متاحف للسلع المستوردة .. فالأسعار أصابها فجأ لوثة من جنون .

منذ أيام قال فاونسا لحكماء الغرب معاتباً : ثمار الانتصار مذاقها الآن مر .. والديمقراطية تفقد أنصارها فى أوروبا الشرقية .. مصانته تخنقها سلعكم المستوردة .. نحن يا سادة فى أمس الحاجة إلى التكنولوجيا

الحديثة .. يعقب الرواة على كلامه .. هذا صحيح .. ولكن يبقى حتى
تُكتمل الصورة أن مدير مكتب فاونسا هو سائق سيارته ! وأن الصراع
الجامع على السلطة أسفر عن انفضاض كل الرفاق الأكفاء من حوله !
شويان ... الأحران تغمر بلادك .. الفرحة التي ملأت القلوب منذ
عامين تحولت إلى هواجس عاتية من ديكتاتورية قادمة على موجات اليأس
والاحباط .. مشارف وطن الحلم مازالت بعيدة ... ولكننا نسعى إليها
منذ فجر التاريخ ..

التاريخ .. فى سيارة مرسيدس !!

لم يحتمل الشاب الطموح أن يعيش فى ظل الأسطورة طويلاً كما يريد أن يحقق ذاته . ورفض أن يكون مجرد دمية تحركها أصابع رجا محنك ، يتشح بعباءة التاريخ ، وزهو انتصاراته . لم يتردد فى أبعاد الرجا من دائرة الضوء . أرغمه على تقديم استقالته كأول مستشار لألمانيا فى ١٨ مارس منذ مائة عام .

الرجل .. هو بسمارك ، الذى وحد ألمانيا . وأقام إمبراطورية بسياسته المعروفة باسم « الحديد والدم » . أما الشاب فهو الإمبراطور وليم الثانى ، المشير أنه لم تمر سوى ٥٥ عاماً على استقالة بسمارك ، حتى انفرط عقد ألمانيا بعد هزيمة هتلر فى الحرب العالم الثانية .

كان يوم يجلله الحزن العميق . ولكن الحزن لم يطغ على حلم الوحدة الدفين فى الوجدان القومى . كان حلمًا مستحيلًا . لم يخطر على با بشر أن يتحقق بهذه السرعة المذهلة .

ففى ذات صباح فى الخريف الماضى هبت من موسكو رياح
يمقراطية . لم يستطع سور برلين أن يصدّها . اينعت زهور الحرية فى
مدينة لينزج . كان أهلها أول من تظاهروا . وبدأت الثورة الهادئة . ولم
تتوقف حتى هدت آخر رموز الحكم الشيوعى فى انتخابات الحرية يوم
الأحد الماضى .

هذه المدينة تتألق زهواً الآن . باعتبارها مدينة « الأبطال » كان الألمان
يتذكرونها قبل ذلك ، عندما يتذكرون شاعرهم العظيم شيللر . ففى
بوعها كتب قصيدتها الجميلة « أغنية للمرح » .

مدينة المرح والثورة كانت مهد الوحدة الجديدة . ولأن التاريخ
يعيد نفسه . فالوحدة هذه المرة يحققها سياسى ألماني يركب سيارة
رئيسىس فارهة . ولا يخاضم الديمقراطية . كما كان يناصبها بسمارك
عداء . إنه المستشار الألماني هيلموت كول .

كول .. لم يكن يتوقع ما يحدث الآن . إنه رجل محظوظ . جاءه
التاريخ « حتى عتبة داره . وطرق بابه فى وقت كانت توارقه فيه هموم
نخابات ديسمبر القادمة . منذ هذه اللحظة السعيدة ، وهو يجذف
أمره السياسى فوق أمواج التاريخ العالية .

فى الشطر الشرقى يحبونه . صوتوا من أجله فى انتخابات
ديمقراطية . يقول البعض .. هذا صحيح . ولكنهم يحبونه مثلما يحبون

السيارة المرسيس طراز ٢٣٠ . فهي رمز الرخاء والزهو . وتبقى قبل ذلك أشواق الإنسان للحرية .

يلومون « كول » لأنه يجدف بسرعة وقوة فوق موجة التاريخ في اتجاه الوحدة . ولكنه يرد عليهم : « اذهبوا إلى نهر الراين . حاولوا أن توقفوا مجرى مياهه المتدفقة . لن تستطيعوا . إنه التاريخ » .

« التاريخ » في ألمانيا يركب الآن سيارة مرسيس . يشق طريقه بسرعة نحو بوابة برلين عاصمة الغد .

الأب الروحي !

من نافذة شرفة منزله ، الذى يطل على النهر ، كان يرقب الأفق .
فأدب خياله أطياف ذكريات عمرها ٧٧ عامًا . هى عمره ولكنه لم
تب من هذه الذكريات سوى صفحات قليلة . رغم أن حلم حياته
مستحيل قد تحقق .

فقد ذهب منذ أيام إلى الشطر الشرقى من بلاده . لم يكن يحمل جواز
ر . ولم يعترضه الجنود عند نقاط التفتيش . كان فى استقباله جماهير
شدة . حدثهم عن الوحدة القادمة . ومنحوه الرئاسة الفخرية للحزب
شتراكى الديمقراطى فى ألمانيا الشرقية .

إنه « فى برانت » .. الرجل الذى دخل التاريخ ، لأنه تجاسر فى
ن سور برلين . ومد من فوقه جسرا للتواصل والتفاهم ، مع جيرانه
مشرقيين القابعين خلف الأسوار . وهى سياسة الانفتاح على الشرق .
لها نال جائزة نوبل للسلام عام ١٩٧٤ .

وعندما هبت عاصفة الديمقراطية فى الشرق ، سقط السور . وقبله
ت قد سقطت من حياة « برانت » أشياء كثيرة تؤرقه . ومنها اسمه .
فهو فى شهادة ميلاده هو « هربرت فرام » فهو يتسبب إلى عائلة أمه
مارثا . فهو لا يعرف والده الذى هرب عندما حملته أمه .

كانت طفولته بائسة . الفقر يكاد يفترسه . أمه تتركه فى رعاية جارتها حتى تكسب قوت يومها . لم ينقذ طفولته من هذا العذاب ، أحيانا سوى جده ولكنه انتحر ذات يوم فى ظروف غامضة .

شق الفتى طريقه فى الحياة بصعوبة . انضم للحركة الاشتراكية الديمقراطية . عندما كان عمره ١٩ عاما ، سيطر هتلر على السلطة وأصبح مطارداً ومطلوباً اعتقاله لعدائه للنازية . واضطر للهرب إلى النرويج وعمل فى الصحافة هناك . وكان يوقع مقالاته باسم مستعار هو « فيل برانت » . وهو الاسم الذى يعرف به منذ ذلك الحين .

ظل فى المنفى ١١ عاما . لم يعد إلى بلاده إلا بعد هزيمة هتلر فى الحرب العالمية الثانية . وتقسم بلاده . انخرط فى الحياة السياسية . أصبح عمدا لبرلين الغربية خلال ذروة سنوات الحرب الباردة . ذاع صيته . وانتخب رئيساً للحزب الاشتراكي الديمقراطي عام ١٩٦٤ . بعدها بخمس سنوات أصبح مستشاراً لألمانيا الغربية وطبق سياسة الانفتاح على الشرق .

ولكن الشرق رد عليه بنصب فخ له ، زلزل حياته السياسية . لقد زرعوا جاسوسا لصالح ألمانيا الشرقية فى مكتبه . وعندما اكتشفت الفضيحة عام ١٩٧٤ قدم برانت استقالته .

هذه الاستقالة لم تكن نهاية المطاف . فهو رئيس الدولية الاشتراكية وهو الأب الروحي لكل الاشتراكيين الديمقراطيين فى الزمن القادم فى بلاده .

* ٣ / ٣ / ١٩٩٠

* مات فيل برانت فى أكتوبر ١٩٩٢

الثعلب .. والتاريخ !

كان الرجل فى أوج مجده .. لكنه عندما استيقظ ذات صباح كفهت شمس أيامه من حوله .. لقد تبين أن جاسوسا محترفا اخترق دائرته الخاصة واحتمى بظله وأصبح مساعداً مقرباً له .. لم يجد الرجل مفراً من تقديم استقالته تكفيراً عن غفلته .. عندما غادر مكتبه إلى بيته كانت رياح الحرب الباردة تنفث سمومها فى الدنيا كلها .. هكذا كان حال المستشار الألمانى الأسبق « فيلى برانت » ذات ليلة شتوية حزينة من شهر أكتوبر عام ١٩٧٤ .

فى تلك الليلة كان رجل آخر يتهلل وجهه فرحاً .. يحتفل مع رفاقه بانتصاره الباهر .. لقد دخل تاريخ الجاسوسية وتوج نفسه أميراً على عرشها .. إنه « ماركوس وولف » رئيس جهاز مخابرات « ألمانيا الشرقية » الأسبق الذى زرع الجاسوس فى بيت برانت .. وقد اكتسب « وولف » شهرة أسطورية فى دنيا السرايب السرية المظلمة .. كانت مغامراته تثير خيال كتاب الروايات البوليسية ومنهم الروائى البريطانى « جون ليكار » الذى أطلق عليه فى مسلسلاته اسم « كارلا » .

ثعلب مراوغ كان هو .. يفلت دائماً من شبك أجهزة المخابرات الغربية .. اسموه الرجل الذى لا وجه له .. لأنهم لم يتعرفوا على ملامحه طوال ٢٥ عاماً .. حتى التقطوا له خلصة صوراً خلال زيارة قام بها لبروكسل عام ١٩٧٨ .

الثعلب أفلت من مصيدة الجغرافيا .. لكنه وقع أخيراً في مص
التاريخ .. عندما غردت طيور الحرية في أوروبا الشرقية أبقي أن ز
قد ولى وانتهى .. بحث عن جحر عميق يأوى إليه .. هرب عشية احتفال
الوحدة الألمانية إلى موسكو .. الرفاق القدامى هناك كانوا لا يزالون
مواقع السلطة رغم راية الديمقراطية التي يرفعها جورباتشوف .

المقام لم يطل به في موسكو .. لقد وقع رفاهه في ذات مصيدة التنا
بعد فشلهم في انقلاب أغسطس ضد جورباتشوف هرع الجاسوس
فينا .. كان يحمل جواز سفر ألمانيا مزورا .. مرق به إلى داخل النمسا
لم يكشفوا أمره إلا بعد فترة من إقامته .. ساومهم وساوموه على ك
أسماء العملاء الذين زرعه في بلادهم ولكنهم رفضوا منحه حق الل
السياسي .

الثعلب لا يجد مهرباً .. قرر الاستسلام طواعية واختياراً لللا
القدامى في العاصمة الألمانية بون .. ليواجه قدره وحكم القضاء ..
مفعمة بكل الرموز والدلالات التاريخية لثعالب الزمن القديم .

« فيلى برانت » .. مازلت أتذكر لحظة حزن قديمة عمرها سبعة
عاماً .. دموعها كانت حبيسة في مآقي عينيك .. لكنك قد تشعر
بشيء من الارتياح وأنت تشاهد استسلام الثعلب واهتراء نظامه .. ال
كانت مقصدهم ولعبتهم ... أما « الفكرة » فقد نشبوا مخابل مصا
وطموحاتهم الشخصية في حروفها حتى أزهقوا الحلم وشيعوا ال
القديمة إلى مثواها الأخير .

غداً .. يوم جميل !

كان فقيراً . تداعب خيالاته أحلام المدينة الفاضلة . عندما أكمل تعليمه ، أصبحت الكتابة هوايته ، والصحافة حرفته . وذات صباح ، منذ زمن بعيد ، سافر إلى إسبانيا .. وقت اندلاع حربها الأهلية . وهناك انضم للثوار .. ليقاوم دفاعاً عن العدل والحرية . ولكن البوليس السرى للشيوعيين طارده . ففر هارباً . بعد أن تبين له الخيط الأبيض من الخيط الأسود .

إنه « جورج أوريل » الكاتب والروائي البريطاني الكبير .. إنه الآن يدخل التاريخ من جديد ، باعتباره صاحب النبوءة الكبرى في عصرنا . نبوءة سقوط النظم الشمولية .. فرواياته « مزرعة الحيوان » ، « عام ١٩٨٤ » .. شاهدان على ما يحدث الآن .

ليلة سقوط سور برلين ، قال شاب ألماني « لن أبقى في ألمانيا الشرقية .. إنها « مجتمع أوريل » يكلد أزمة عميقة . بعد ذلك قال « هاتز مودرو » رئيس الوزراء الجديد آنذاك : « إنها البيروقراطية اللعينة .. لقد دمرتنا » .

« مودرو » .. جاء بعد انهيار سور برلين . إنه رجل مستقيم . يعيش حياة متواضعة ، لم تلوثها إغراءات السلطة . ولكن قدره أنه كان رجلاً طيباً في حزب قياداته سيئة السمعة .

كان يعرف أن مهمته أن يقود السفينة في بحر عاصف حتى تصل إلى بر الديمقراطية . كان يرى قيادات الحزب الشيوعي وهي تسقط هونيكير اعتقاله بتهمة الفساد والخيانة بعد أن حكم البلاد لمدة ٧ عاما . أما خليفته كريستس فلم يبق في منصبه سوى ٤٧ يوماً .

يوم سقوط كريستس في ٣ ديسمبر ١٩٨٩ ، قال مودرو : « إحداث اليوم روعتني » . ورفض الانضمام للجنة المركزية الجديد للحزب ، حتى يتفرغ لقيادة السفينة حتى ترسو غداً عند شاطئ المستقبل الجديد . فغداً ١٨/٣/١٩٩٠ تجرى أول انتخابات حرة منذ سلم ستالين الشيوعيين السلطة هناك بعد الحرب العالمية الثانية .

مودرو .. لم يشك لحظة في أن مصيره محتوم . لن يكون سوى مجرأ جملة ، كلماتها غير واضحة في كتاب الزمن القادم .

وقد سمع « مودرو » هذه الأغنية الشعبية الألمانية كثيراً . كلماته تقول : إنه ليوم جميل ، ليته يبقى إلى الأبد » .. ردها عشاق الحري وهم يعبرون سور برلين .

والآن .. وداعاً مودرو .. فغداً يوم جميل .

الحرية .. وأخواتها

الفتاة الأخرى .. !

كانت فتاة جميلة . لكنها لم تنظر إلى نفسها فى المرأة كثيراً . كانت مولعة بالنظر فى الكتب . لم تهتم بحفلات الشاى . ولم تحفل بالثروة ولا بآخر الأزياء . استبد القلق بأما .. ظنت أن ابنتها لن تجد زوجاً . وزاد جزع الأم عندما تركت الفتاة منزل أسرتها الثرية .. لتبحث عن أقارب لها فقراء . عاشت معهم زمناً . كان يثقل قلبها تعاستهم .

التقت فى رحلتها الوعرة فى دروب الحياة بكاتب شاب فقير . خلب وجدانها وعقلها بإيمانه بفردوس العدل والحرية . أحبته . تزوجته . أنجبا فكرياً إنسانياً جميلاً . إنها « بياتريس ويب » ورفيق حياتها « سيدنى » أسسا مع الكاتب المسرحى العظيم « برنارد شو » الجمعية الفابية البريطانية .. من رحمها ولد حزب العمال البريطانى .

بياتريس ماتت قبل أن يثلج قلبها وصول حزبها إلى السلطة عام

. ١٩٤٥

فى ذلك الوقت كانت فتاة أخرى اسمها .. « مارجريت » تنه
دراستها الجامعية . كانت من فقراء القوم . أبوها كان بقالا . لكنه
اتسلخت بطموحها الجامع من عالمها . حثت خطاها فى الاتجاه الآخر
عندما استيقظ الناس ذات صباح من عام ١٩٧٥ وجدوها زعيمة لحزب
المحافظين .. وبعدها بأربع سنوات صارت أول رئيسة للوزراء فى بلادها
وفى أوروبا كلها .

فى ذلك الصباح .. استيقظت فكرة « البقاء للأقوى » التى صاغها
« داروين » من سباتها . تحرك كتابه « أصل الأنواع » ليقع فى حوزة
يد « مارجريت تاتشر » . تقول لكم .. الفقر خطيئة . على الفقراء
يكفروا عنها بالموت جوعا ! لا مكان فى الدنيا سوى للقوى القادرة
الصراع فى حلبة المنافسة .

حمى المنافسة فى السوق توهجت لسنوات ثم انطفأت عام ١٩٨٢
عادت المشاكل القديمة تحاصر مارجريت . انخفضت شعبيتها . لكن قد
معصوب العينين أنقذها . فقد انتصر جيشها فى حرب جزر الفوكلاند
ونجحت مرة أخرى فى انتخابات ٨٣ . وتفرغت لكسر عظام نقابا
العمال . عاشت أزهى سنوات قوتها التى يحسدها عليها « داروين
نفسه !

قوتها لم تدم طويلا . فقد عادت ذات المشكلات التى حسم
جموحها لتعريد من جديد . البطالة والتضخم ينشبان مخابهما فى و.

طموحها . ونداء أوروبا الموحدة يحاصرهما . وتمرد عليها المحيطون بها .
أسقطوها .. بينما كانت تثبت حتى الرمح السياسى الأخير يرداء
السلطة .

« ياتريس » .. يا صديقة الإنسان الطيب البسيط . يورثك
ما يحدث . ولكن لا تجزعى .. فباطل وقبض الريح أى فكر بلا وجه
إنسانى . الحضارة ليست مجرد جدران رخامية لامعة وشاهقة - وإنما
هى حديقة غناء تنبت فيها ثمار العدل وتصدح فيها طيور الحرية .

يوميات .. امرأة مشاغبة !

أم وأولادها الثلاثة . وجدوا أنفسهم بين مخالف زمن لا يرحم . كانوا فقراء . ولكن الأم لم تستسلم . خاضت غمار مصاعب جمة . حاولت الإفلات بأبنائها إلى شاطئ آمن . كانت تتحدى قدرًا عنيدًا . وتواجه عاصفة من الموت والخراب ، وقت اندلاع حرب ضروس . ولكنها فى رحلتها المستحيلة للنجاة فقدت أبنائها .

إنها « الأم شجاعة » فى مسرحية الكاتب الألمانى « برتولت برشت » . كتبها عام ١٩٣٩ عن حرب الثلاثين عامًا الأوربية . كان يلعن من خلالها الحرب العالمية الثانية التى فجرها النازى أدولف هتلر .

« بريشت » كان يناصب النازية العداء . اسمه كان فى صدر قائمة الإعدام ، عندما تمكن من الحرب من ألمانيا بعد احتراق مبنى البرلمان عام ١٩٣٣ ، لم يعد إلى برلين « الشرقية » إلا فى عام ١٩٤٨ ، بعد هزيمة هتلر .

لم يحمل جنسية ألمانيا الشرقية . وأكفى بجواز سفر نمساوى . كأنه كان يريد أن يحتفى بين دفتيه من النقد الموجه ضده لأنه أثر الصمت على ما حدث من ممارسات جعلت الفكر محاصرًا فى أبواب الدعاية ، والحلم رهينة .

« برشت » كان أسعد حالاً من بطلته مسرحيته فقد مات عام ١٩٥٦ ، قبل ٤ سنوات من بناء سور برلين . وبقي السور ٢٩ عامًا ، حتى انهار وسط عاصفة الحرية التي هبت عليه في الخريف الماضي - وهكذا أنقذه القدر من لوعة الحزن على الفكر والحلم ، فلم يتجرع الأسى الذي تجرعه « الأم شجاعة » لموت فلذات كبدها .

« الأم شجاعة » تدب فيها الحياة من جديد . ممثلة بريطانية لامعة هي « جليندا جاكسون » تمثل دورها الآن وتثير جدلاً سياسياً صახباً حول دور « الأم » وحول دورها هي القادم على مسرح الحياة السياسية . فهي تعتزم ترك عالم المسرح والسينما . واقتحام دنيا السياسة . فهي مرشحة في قائمة حزب العمال البريطاني في الانتخابات العامة^(١) .

« جليندا » تدق خشبة المسرح السياسي دقات عنيفة تقول : « المشكلة الآن ليست الصراع على السلطة ، وإنما النضال من أجل إنقاذ روح البلاد » ثم تحتد في قولها : « إن الفساد صناعة رائجة » !!

من تحت عباءة « الأم شجاعة » خرجت جليندا . فتاة تنتمي لعائلة فقيرة . أبوها كان عامل بناء . مات منذ عشر سنوات . تعيش مع ابنها الذي يدرس في الجامعة . ويتطلع إلى أن يصبح صحفياً . فقد انفصلت عن زوجها بعد زواج دام ١٧ عامًا .

(١) فازت جليندا في الانتخابات

دنیا للسیاسة والفن الجمیل لا یجید اللعب علی مسرحهما سوى إنسان
مشاغب . « برشت » طلب أن یکتبوا فوق قبره : « هنا یرقد رجل
میت » ربما لم یبق منه شیء علی الإطلاق . فقد کان إنساناً مشاغباً
شیراً للقتل !!

« جلیندا » .. رحلتك صعبة . مهمتك لیست مظفرة لتحریر ملحققة
بحرية من الأسر من بیتها الزجاجی ، وإطلاق سراحها فی البحر . لقد
فعلت ذلك ، ذات یوم فی فیلمك « یومیات ملحققة » ولكن السياسة
دنیا دروبها لیست مستقیمة . وعلى من یرید السیر فی طرقاتها وشوارعها
أن یكون مشاغباً عظیماً ونبیلاً .

الراوى .. والحديقة

شد الرحال إلى العاصمة الكبرى .. سبقت أمه إلى هناك بعد أن ضاقت
رعاً بوالده .. اضطربت أحواله المالية فأدمن الخمر .. الفتى لم يكن
ماقاً بوالده .. كان يبحث عن حلم يروده .. أنه يصبح كاتباً .. لكنه
كان غريب الأطوار فى تلك المرحلة من حياته .. تحول إلى عبء ثقيل
على والدته المعسرة .. عاش تسع سنوات عجاف لا يعمل .. لم يكسب
حلاها من كده سوى ستة جنيهات .. كرس جهده ووقته لقراءة الكتب
وذخائر التراث الإنسانى والفكرى .. ولأنه كان موهوباً فقد سطع نجمه
تألق فى دنيا الأدب والفكر .. الكوميديا على خشبة المسرح تقطر
حبكتها بالفكر وتشع مواقفها بسخرية تخذش الزيف والرياء .

« برنارد شو » .. الكاتب المسرحى البريطانى مات عام ١٩٥٠ ..
امتدت به رحلة العمر حتى بلغ الرابعة والتسعين .. علشها متمرداً على
مفردات الواقع الاجتماعى فى زمنه .. ولأنه كابد فظاظة الفقر .. فقد
عتبره جنر الفستاد ورأس الشر .. جنحت به أفكاره إلى رحاب إنسانية
عليا تضيء دروبها أمنية العدل وحب الحكمة .. أسهم فى تأسيس
« الجمعية الغاية » مع اثنين من أعلام عصره .. سيدنى ويب وزوجته
بياتريس ويب .. فى أروقتها ولد حزب العمال البريطانى .

« برنارد شو » .. تقتصره الأحزان الآن .. حزبه القديم يدخل مرحلة
الخشوف السياسى .. يحتضر حتى الموت .. فشل للمرة الرابعة فى الفوز

فى الانتخابات .. ينتزع منه « المحافظون » النصر .. يقول الرواة ..
ما يحدث أمر جلال وخطير .. الموت السياسى لحزب العمال ينذر بدخول
البلاد إلى مشارف مملكة الحزب الواحد .. هكذا حال اليابان منذ نهاية
الحرب العالمية الثانية .. الحزب الحر الديمقراطى ينفرد بعرش السلطة ..
لا تلوح أى بارقة أمل فى فوز الحزب الاشتراكى المعارض .. الأسباب
تختلف .. هذا صحيح .. لكن هذه الظاهرة السياسية تثير التأمل .

الأدهى والأمر .. أن الحابل يختلط بالنابل فى الشارع السياسى ..
« العمال » وقعوا فى مصيدة إغراءات السلطة وحبالها .. نزعوا أوراق
التوت .. عرايا هم الآن من كل فكر .. أبحروا بسفينتهم فى بحر
« المحافظين » .. أعلنوا توبتهم عما سلف .. قال كبيرهم وقتها « نيل
كينوك » .. أيها السادة .. أرجوكم .. امنحونا الفرصة .. نعدك ..
لا تأميم .. ولا نزع للأسلحة النووية .. لم تشفع له توبته وقت
الانتخابات .. للمم أوراقه واعتزل .

الأوراق تزداد اختلاطا .. « جون ميجور » كبير حزب المحافظين
يعد الناس بالمن والسلوى .. أولى كلماته لهم بعد انتصاره الأخير ..
تثير الريب والعجب .. إنه يشهرهم بالحلم « اليوتوبى » الأزلى .. مجتمع
بلا طبقات فى بريطانيا .

« برنارد شو » .. هل لم يبق أمامك سوى أن تعيد أماننا المشهد
القديم المثير .. تتذكر وقائع ذاك اليوم البعيد .. وقتها استبد بك الشوق
للعدل .. والوجد للفكر .. القيت خطابا لمدة ساعة كاملة .. جمهورك

لم يكن سوى ثلاثة شبان استلقوا فوق حشائش حديقة « هايد بارك » الشهيرة .. عندما كنت تتوقف عن الكلام لتلتقط أنفاسك .. كانوا يقولون لك .. حسنا اكمل .. قل ما تريد .. نعم .. قل ما تريد .. مهما كان الخطب عصبياً .

الحرية .. وأخواتها !

اختطف الموت أمه وهو فى السابعة من عمره .. وتولى أبوه رعايته .. وتمنى أن يصبح محامياً مثله .. غير أن الفتى كان مرهف الحس ، عميق الوجدان .. فوقع فى عشق ربة الشعر وهوى فى غرام آلهة الحكمة .. أصبح شاعراً ومفكراً .. لكن زمانه كان رديئاً .. فقد حكموا عليه بالسجن لمدة ١٧ شهراً بتهمة ملفقة .. ادّعوا أنه هاجم أحد كبار المسئولين .. كان وقتها فى الثالثة والعشرين من عمره .. كابد فى زنزاته المظلمة جبروت الحكم الجائر .. لكنه لم يتخاذل يأساً .. بل تحول إلى محارب جسور بالكلمة من أجل الحرية والرخاء والمساواة .. شعار الثورة الفرنسية الكبرى [١٧٨٩] التى أسهم بفكره فى تفجيرها .

إنه « فولتير » العظيم .. تستظل فرنسا بظلال مجده وعطاء فكره .. لن ينطفىء قنديله أبداً .. فهو واحة الأمل للإنسان الظالمى للحرية والعدل .. راية « فولتير » يرفعها فى شموخ كل حكام فرنسا العظام فى رحلة صعودهم إلى السلطة وهبوطهم منها .

الجنرال ديغول كان عظيماً وحكيماً .. عندما احتلت القوات النازية بلاده ، فى زمن الحرب العالمية الثانية .. قال للعالم كلها « فرنسا حرة » .. وناضل حتى تحررت باريس .. ديغول الأسطورة الوطنية لم يتمرد على أفكار فولتير عندما حانت ساعة هبوطه .. استجاب لإرادة الشعب الذى قال له « كفى مع خالص الشكر والتقدير » .

أجواء هذه اللحظة التاريخية ومشاعرها الغامضة والفياضة يكابدها الآن الرئيس الفرنسي ميتران .. منذ شهور وصحف فولتير تلاحقه .. تقول له كفى لقد تجاوزت أيامك فى السلطة سنوات حكم ديغول .. لقد سئمتنا ثلاثين عامًا تحت مظلة الجمهورية الخامسة ..

يشند صحب الكلمات ويعنف .. وميتران فى عامه الرابع والسبعين .. تقول كلماتهم .. الثعلب العجوز خائنه الحكمة والحنكة .. لقد وصف زعماء الانقلاب الفاشل فى موسكو بأنهم القادة الجدد .. لقد أخذته الأحداث العاصفة فى أوروبا الشرقية وتحولاتها المتسارعة على حين غرة .. لقد كان يود ألا تتسارع الأحداث حتى يبقى جانب من النظام القديم !

« فولتير » .. أحد أحفادك أخطأ فى التعبير وإن لم يخطئ فى التقدير .. فهبت عليه عاصفة لا ترحم .. لكنك تتذكر أن نفرًا من أبناء فكر الثورة الفرنسية خرجوا من تحت معطفها .. واغتربوا فى متاحات الدروب الوعرة .. لكن رايتهم سقطت بعد أكثر من سبعين عامًا .. لعل مشكلتهم الكبرى أنهم خاصموا الحرية وأنكروها .. وادعوا انهم يفضلون أخواتها .. الاخاء .. المساواة .. العدل .. « ليس بالحرية وحدها يحيا الإنسان .. وبغير الخبز يموت » .. رغم بلاغة الشعارات لم يأتوا بالمن والسلوى .. ولا حتى بالخبز الوفير !

« الحرية وأخواتها » .. طريق خلاص الإنسان من أباطيل زمن القهر المدجج بالشعارات المخادعة ..

الحلم .. والكابوس !

امرأة فى ربيع عمرها نظرت لمن حولها فى قلق ، وقالت فى فزع :
لقد عادت الأشباح من الماضى الموحش .. تنثر الظلمات فى الطرقات ..
لم يدرك من كانوا فى صحبتها ما تعنيه .. اكتفوا بالتحديق فى وجهها
الذى تنطق قسماته بالخاوف والأسى .. فطنت إلى هواجسهم الدفينة
فقالت : « إن هتلر الطاغية النازى قد ظهر فجأة فى كل مكان .. لقد
كنت أظن أننا بخلصنا منه إلى الأبد .

فى ذات الوقت الذى كانت فيه هذه السيدة البولندية تفصح عن
توجسها من الأيام القادمة .. كان الشباب فى دول أوروبا الشرقية
يتخاطفون كتاب هتلر « كفاحى » . التعويذة الفكرية للنازية .. عشرون
ألف نسخة منه نفدت فى بولندا ذات صباح .. لتمتلئ المكاتب من
جديد بهذا الكتاب اللعين ..

مؤامرة .. لا أحد يعرف دار النشر السرية التى تغرق البلاد به ..
يقول الراوى : الحركات العنصرية والنازية فى العالم الغربى تتضافر
جهودها لمحاولة إقامة « الرايخ الرابع » فى أوروبا الشرقية .. ربوعها
لا تثبت الآن سوى أعشاب اليأس والاحباط .

الناس خرجوا ذات يوم جميل من تحت العباءة الكثيفة للنظم
الشمولية .. أضاءوا دروبهم بشموع الحرية فى الربيع الجديد الذى

ينزع على براغ .. كانوا من فرط فرحتهم وحبورهم يمنون أطفالهم بالخبز
والحلوى .. والمن والسلوى .. لكن الحلم سرعان ما انطفأ بريقه ..
وتحول إلى كابوس مروع .. لم يجدوا أمامهم سوى « السوق » المعبود
الجديد الجامع .. على مذبحه لابد من تقديم القرابين ..

جيل تزهق أحلامه فى طوابير البطالة الطويلة أمام حوانيت لا سلع
فيها ولا خبز !

« هتلر » تقدم ذات يوم مثل هذا الطابور .. واستولى على السلطة ..
وأراد أن يجتاح الدنيا بأفكاره النازية التى تخاصم التاريخ .. وتعادى
الانسان البسيط .. وتنصب نخبة عرقية فوق عرش العالم .. أحفاده
يفطنون إلى هذه الحكمة السوداء .. يسربون وسط جو الاحباط كلماته
للعينة إلى مدن البؤس الجديدة .. وبين حروف الكلمات تختبىء
الطلقات ..

اكتشفوا فى المجر تنظيمًا نازيًا مسلحًا كان يستهدف قلب نظام
الحكم .. قالوا : إن أعضائه تلقوا تدريبات عسكرية فى معسكرات
سرية .. الحركات النازية فى الغرب تريد عبور بوابة المجر إلى أوروبا
الشرقية بأسرها .. فهم هناك على موعد مع الرايخ الرابع !!

يحدث هذا فى الوقت الذى يزدهر فيه النشاط العنصرى والنازى فى
أوروبا الغربية .. فى النمسا زعيم سياسى يقول البعض إنه « حفيد هتلر »
فهو لا يخجل من تبني سياساته النازية .. اكتشفوا هناك - أخيرًا -

تنظيمًا نازيًا مسلحًا يدبر لقلب نظام الحكم .. أما في فرنسا وألمانيا
وبريطانيا .. فيرفع النازيون الجدد أعلام هتلر لاغتيال المهاجرين من أبناء
العالم الثالث ..

الحكماء هناك يروعهـم هذا المشهد .. يحذرون من هذا الطوفان حتى
لا تفرق الحضارة ويفرق الإنسان في دوامة الكراهية .. لكن التحذير
لا ينفي النذير .

أشواق .. لا تنطفىء !

كان فى الخمسين من عمره .. عندما اشتد ولعه بقراءة كتب المغامرات وقصص أبطال الفروسية .. استولت مشاهدتها المثيرة على خياله وعقله .. أهمته فكرة غريبة .. أن يصبح فارسًا مغوارًا .. يظهر الأرض من أعشاب الظلم ، وينقذ الضعفاء من جبروت الأقوياء .. وذات صباح خرج من داره شاهرًا سيفه .. ظن الناس فى قريته أن مسًا من الجنون قد أصابه .. لكنه لم يعرفهم أى اهتمام .. امتطى صهوة خياله الجامع لبدأ سلسلة من المغامرات الوهمية والمفارقات العجيبة .. بلغ الذروة عندما حارب طواحين الهواء وهو يصرخ بأعلى صوته .. سأقتل المردة الجبابرة !!

هذا هو « دون كيشوت » الذى أقعده الكاتب الأسباني العظيم « سيرانتيس » على عرش الرمز الإنسانى .. عليك أن تبحث عن العدل مهما صادفت من أنواء .. حتى لو حاربت طواحين الهواء .. منذ ذلك الزمن لبعيد يحلو « لدون كيشوت » أن يخرج من دفتى الرواية الرائعة ليتجول فى طرقات المدن .. وقد استقر به المقام منذ عامين فى روما وتسلل ذات مساء إلى داخل قصر الرئاسة .. وداعب بحكاياته خيال الرئيس لاطال « كوسيجا » ولم يتردد الرئيس فى أن يقول للناس فى بلاده : « أنتى أشبه « دون كيشوت » ومن فرط إعجابه به يضيف : « إنه لم يكن مجنونًا عندما حارب طواحين الهواء .. لقد كان يدرك أنها ليست مردة .. لقد كان يتظاهر بذلك » !

« كوسيجا » .. أمره عجيب .. ظل طوال السنوات الأولى منذ تولي الرئاسة عام ١٩٨٥ مثل « دون كيشوت » طوال سنوات عمره الخمسيز الأولى .. كلاهما كان لا يثير غضب أو حق من حوله .. ثم بدأ كوسيجا يثير دهشة أهل روما .. حمل معوله وقال محذراً .. لا بد من إصلاح النظام السياسى فى إيطاليا .. وبدأ معاركه الصاخبة مع طواحين الهواء الجديدة .. النظام القضائى .. وأجهزة الإعلام .. والمؤسسة السياسية . والجريمة المنظمة ..

يقول أقرانه ومساعدوه .. لقد بدأ الرجل يتكلم عندما اقتربت نهايا فترة حكمه .. فهو يدرك أن النظام السياسى الراهن الذى يتركز على صيغة الحكومات الائتلافية الهشة قد دبت فيه عوامل الوهن ، واعترتا الشيخوخة .. وهو يخشى إذا ما ترك الحال على ما هو عليه أن تشتد أعواد أعشاب الفوضى السياسية والعنصرية التى تفرسها فى الأرض الحركات والأحزاب الفاشية .

كوسيجا .. عندما انتخبوه رئيساً قال .. حسناً إننى أملك ولا أحكم مثل ملكة بريطانيا .. ولم يتبرم وهو قابع فى قصره يمارس طقوس الرئاسة الشرفية .. لكنه تمرد على الصمت منذ عامين .. ودخل حلبة السياسة من أوسع أبوابها .. وقال آنذاك أن من حقى حل البرلمان والدعوة لانتخابات عامة مبكرة وهو القرار الذى اتخذه بالفعل لتجرى الانتخابات المبكرة فى أوائل أبريل ١٩٩٢ .. إنه يطمح إلى تأهيل بلاده لأن تكون نذاً لأقرانها عندما تبدأ الوحدة الأوروبية القادمة .

عندئذ تذكر الناس موقفاً قديماً أثار به « كوسيغا » ذهولهم
وإعجابهم .. لقد قدم استقالته ذات يوم من عام ١٩٧٨ عندما اغتال
عضء الألوية الحمراء الإيطالية « الدو مورو » زعيم الحزب المسيحي
لديمقراطى الحاكم .. كان وقتها وزيراً للداخلية .. وأعلن تحمله مسؤولية
لفشل فى إطلاق سراح مورو ..

« دون كيشوت » .. أراك بعين الخيال وأنت تتجول فى دروب
دنيا الأسطورة .. تبحث عن المدينة الفاضلة .. رحلتك تبدو طويلة
وشاقة .. تكتنفها الأخطار والمكائد .. لكن الشوق الإنسانى للعدل
والحرية لن ينطفىء أبداً ..

كوميديا .. الأحلام

ضل رجل طريقه .. قاده قدماء إلى غابة كثيفة موحشة .. قضى فيها ليلة مروعة .. عندما أشرق نور الصباح ، أراد أن يرتقى جبلا يغمضه ضوء الشمس قمته .. لكنه تراجع مذعورا .. وحوش ضارية كادت تفتك به .. فى هذه اللحظة المفعمة بالخوف رأى شبحا .. توسل إليه أن يده على طريق الخلاص .. قال له فى صوت هامس .. لا سبيل أمامك للنجاة سوى أن تقوم برحلة إلى الجحيم والمطهر والفردوس . سوف أكون مرشدك .

لم يكن أمام الرجل أى خيار .. فالوحش من أمامه .. وظلمة الغابة تحديق به من كل صوب وحذب .. خلق مع طائر الخيال حتى نهاى الرحلة الفريدة والعجيبة .. وصفها فى رائعته الكونية « الكوميديا الالهية » .. إنه الشاعر الإيطالى العظيم « دانتي » .. أشعاره تجليات تفيض بالرموز السياسية والدلالات الاجتماعية .. الكوميديا رؤى أخلاقية .. دليل للآفات من مستنقع السفالة الاجتماعية .. وحتى لا تعثر الأرض الشرور ..

« دانتي » .. مثاليا كان .. العدل والحرية والأخلاق .. قنائيله التى تضىء الحضارة والدنيا .. عندما شب عن الطوق إبان القرن الثالث عشر كانت موجة عاتية من الاضطراب السياسى تجتاح بلاده .. انخرط الشاعر فى عالم السياسة ، وصراعات أحزاب زمنه .. كان يتمنى إلى

حزب البيض الذى تولى السلطة فى فلورنسا .. أوفدوه فى مهمة لمقابلة البابا .. تمكن حزب السود من الاستيلاء على السلطة .. حكموا عليه بالنفى حتى آخر العمر .. عاش مشردًا ومطاردًا .. كتب « الكوميديا » خلال رحلته التنعسة والفضة فى مسارب الجحيم الأرضى ..

إيطاليا .. لم تعرف قدر شاعرها العظيم إلا بعد موته بسنوات .. هكذا حال الدنيا .. الشعراء النبهاء فيها غرباء .. مشاغبون .. يبدعون كلمات جميلة تمزق حروفها أقنعة الرياء والريف .. وتعاقق عالم الحلم .. وفى الجحيم الأرضى يلقي بهم مع المفكرين فى كل زمن يضل الخلق فيه الطريق إلى غابة الظلمات ..

إيطاليا .. لم تزل بعيدة عن رؤية شاعرها وروءاء فى دنيا السياسة ... منذ أيام علت فى شوارعها أصوات الاحتجاج .. زمجرت فى صناديق الاقتراع فى أهم إنتخابات شهدتها منذ عام ١٩٤٦ .. تعثرت خطى لائتلاف الحاكم منذ ذلك الحين .. غلظت مخالب اليمين الفاشى .. طرح دعاوى بانفصال الشمال الغنى عن اليمين الفقير .. أشباح الفوضى السياسية تعربد .. يقول حكيم إيطالى .. لقد انتهى النظام الحاكم .. ولا بد بديل جاهز .. فالأحزاب الأخرى مبعثرة .. ممزقة .. المأزق فى روما لأن ليس حالة خاصة .. العواصم الأوروبية تكابد أزمة هوجاء .. سقوط مؤسسات الحكم التقليدية التى رفعت أعلام زمن الحرب الباردة .. عندما تتحرر الدب السوفيتى فجأة .. انتكست أعلامها .. تبعثرت قواها ..

تفسح فلولها الميدان لجحافل الردة الحضارية .. الفاشيون .. النازيون ..
يهوولون فى الطرقات التى كانت آمنة !
« دانتى » .. ما العمل ؟ .. الهم والغم تمطرهما غيوم الأزمة ..
الأحفاد ضلوا السبيل إلى غابات الظلمات .. لم يشرق عليهم بعد نور
الصباح .. ينفطر قلبك حزنا على مسارهم .. وأسى وحسرة على
مصيرهم .. لكن حبل الرجاء لم ينقطع .. لا تغلق بابك غضباً ..
لا تطفئ قنديلك يأساً .. مع أول ضوء لشمس النهار .. ينقشع غبار
الهواجس والأكاذيب .. ولن يبقى لنا نبراس سوى كلمات مضيئة عن
الحرية والعدل والأخلاق .

خيال المآة ورأس الأفعى !!

الإمبراطور .. والفتاة الجميلة !

عاد إلى الوطن ، بعد سنوات من الدراسة في فرنسا . قلبه كان يفيض بالشوق . ووجدانه ينهشه القلق . فتاته الجميلة التي لم يرها منذ رحيله ، يورقه أن تكون عواطفها قد فترت . أما الوطن فكانت أهواله تشير الشجن . وعندما نام ذات ليلة . ورأى فيما يرى النائم حلمًا مروعًا : الوطن تحف به المكاره . ولكن الخلاص في الأفق .

هذه هي رواية « حلم إفريقيا » للكاتب الأفريقي الغيني « كامارا لاي » نشرها عام ١٩٦٦ . بعد ٦ سنوات من عام استقلال إفريقيا . الحلم الوطني تحقق . لكن الحرية لم تأت . والخبز لا يكفى . والعبء غائب . والخوف يملأ النفوس . رواية مزعجة . تفيض برؤى سياسية موحية .

قبل عام من نشر الرواية . قفز إلى السلطة في إفريقيا الوسطى رجل غريب الأطوار اسمه : « بوكاسا » . نصب نفسه إمبراطورًا عليها في

احتفال أسطوري تكلف ١٨ مليون جنيه استرليني . كانت
« الإمبراطورية » تتضور جوعاً ورعباً . وكان يلقي بمعارضيه أحياء
لتأكلهم التماسيح والأسود .

ذهب « بوكاسا » في انقلاب ولكن أقرانه لا يزالون . واحد منهم
يحكم بلده منذ ربع قرن . أمواله التي هربها إلى الخارج تساوي ديون
بلده . يمتلك قصرًا رخاميًا على طراز قصر فرساي بفرنسا . وتحت قدميه
٥٠ سيارة مرسيدس . وقائمة الثراء مذهلة بينما ٨٠٪ من شعبه
لا يجدون ما يأكلون . أسلاف بوكاسا وأقرانه حولوا حلم إفريقيا إلى
كابوس . عندما سجنوا بطل الرواية « كامارا » كانت تهمة هي أوهام
الحرية والعدل . وقرروا إعدامه . ولم تنقذه سوى « دراموس » الفتاة
الجميلة الأسطورية . قالت له لو كنت قد تخليت عن أحلامك النبيلة
وشجاعتك لما كنت أنقذتك .

« دراموس » تغنى الآن على دقات الطبول الغاضبة في بعض بلاد
إفريقيا . إنها تشدو للديمقراطية . لكن رجل الخمسين سيارة مرسيدس
يريد أن يقتنص الحلم الجديد . أعلن أنه أصبح ديمقراطيًا . وسيأخذ
له مقعدًا فوق كل الأحزاب ! لا أحد يصدقه .

يا فتاة حلم إفريقيا .. الناس أحلامهم نبيلة . يقبضون عليها كالقباض
على الجمر . في شجاعة وبسالة . هل تسمعين ؟ .. النجدة .

المدينة .. والسحر الأسود !

ذات صباح .. تسال فى حذر من قريته .. ترك زوجته وأمه .. وهرب إلى العاصمة عمل موظفًا فى شركة بترول كبرى . جذبته إغراءات المدينة وأضواؤها الباهرة . لم يقاوم .. كان يريد أن يفلت من إسار قبيلته وأسرها .. فقد رفض أن يكون زعيمًا لها .. كان الانتماء للوطن غايته ، وعقيدته .

عندما كان طالبًا فى الجامعة ، انخرط فى حركة الاستقلال الوطنى ، وأقنع شيوخ قبيلته بتأييد « الحزب القومى » لم يعصوا له أمرًا ، فهو الشاب الوحيد المثقف بينهم ، أملهم المنشود فى الغد ، كانوا يراهنون على أن رياح الحرية القادمة قد تدفع به إلى منصب رفيع ، حتى يشعروا بالزهو والحماية تحت عباةته ..

الاستقلال جاء ، ولكن الشاب المثقف « ريمى » لم يصبح وزيرًا فى الحكومة ، ولم يرتد عن إيمانه بضرورة سحق مفهوم القبيلة حتى يتخلص الوطن من جرثومة قد تزهق وحدته .

هذه هى مسرحية « الناسك الأسود » للكاتب الكينى « جيمس نجومى » ، تصور جانبًا مفاجئًا من دراما الوطن الأفريقى ، منذ سنوات الاستقلال ، لم تستطع الحكومات الوطنية أن تحل لغز القبيلة ، وأن تذيب طلاسمه فى بوتقة الوطن . كان عليها ألا تطارد الحرية ، وأن ترعى شجرة العدل حتى تقيء ظلالها الوارفة على الجميع ، ولكنها لم تفعل ، وسلكت دروبًا ملتوية أخرى .

حكماء القبيلة وشيوخها يقولون للشباب « ريمى » : « نريدك زعيمًا . عليك أن تشكل حزبًا سياسيًا تصطف القبيلة تحت لوائه ، حتى نصل إلى السلطة » .. يرد عليهم فى نبرة تشى بالوعى والتمرد : « يا قوم .. لابد من سحق القبيلة تحت حذائى » .. روعهم ما قال . إنه « السحر الأسود » للقبائل الأخرى قد منس الفتى !!

« السحر الأسود » خرافة حكماء الزمن القديم ، لكن ما حدث بعد هذا يضغط على العقل حتى ليكاد أن يتفجر من هول الواقع . « لبسوا قشرة الحضارة ، ولكن الروح جاهلية » وقبلية !!

عندما طلبوا من « صامويل دو » رئيس ليبيريا أن يغادر البلاد حتى يمكن فض اشتباك الحرب الأهلية المروعة التى تجتاح البلاد منذ ٦ شهور ، قال : « لا .. لابد أن تتوافر أولاً ضمانات أكيدة لحماية أبناء قبيلتى !! » باسم القبيلة كان يحكم منذ انقلابه العسكرى .. أما الوطن فهو مجرد راية مصلوبة على سارى العقل القبلى ، والجاهلى !

فى هذا الوقت ، اجتاحت كينيا موطن مسرحية « الناسك الأسود » رياح التغيير والديمقراطية ، قال حكماء القبيلة .. لا .. سحفاً للديمقراطية .. إنها سحر أسود ينثى الشرور وتعاويذه تأتى من خارج الحدود . إن لدينا ٤٠ قبيلة كلها تطمح فى الوصول إلى السلطة ودوت طلقات الرصاص فى المدينة .

يا حكماء الزمن القديم .. لا جدوى . لقد فات الوقت .. رياح الحرية والديمقراطية آتية لا محالة .. لتجتاح كل القراصنة ..

* ١٤ / ٧ / ١٩٩٠

خيال .. المآتة !!

كان رجلاً فاضلاً .. اختار أن يعلم الأجيال الجديدة حروف كلمات لصدق والفضيلة وقصائد حب الوطن .. كان مزهواً بذلك .. وعندما أصبح ناظرًا لمدرسة ابتدائية شعر بالرضا .. ولكن فجأة يحدث ما لم يخطر على باله .. لقد اختاروه وزيراً بعد أن نالت بلاده الاستقلال .. ولم يمض وقت طويل حتى شعر باليأس وأقعد القنوط همته .. لقد امتلأ شراع سفينة السلطة بالرياح الفاسدة .. وجنحت بها تيارات المحسوبية ودوامات الحكم المطلق ..

هذه هي رواية « فتیان الثرثرة » للكاتب الإفريقي « كامبيرون دادو » .. وهو يصور في قصصها المأساوية الكابوس المروع الذي جثم على صدر دول إفريقية عديدة ... لقد رفعوا علم الوطن ... وأقاموا في ذات الوقت نصباً كميئاً لخيال المآتة حتى يروع طيور الحرية ..

في ذلك الزمن كان معلم آخر يحض تلاميذه على فضيلة الاستقلال .. يشهرهم بالحرية والطعام لكل فم .. كان اسمه « كنيث كاوندنا » غير أنه ذات صباح ترك مدرسته .. وانخرط في دنيا السياسة وشكل حزباً جديداً .. واعتقلوه .. وأمضى عاماً في سجن موحش .. وعندما أطلقوا سراحه استمر في النضال ضد الاستعمار حتى تحررت زامبيا وأصبح رئيساً لها عام ١٩٦٤ .

منذ ذلك اليوم البعيد .. وكاوندنا لم يرح القصر .. كانت البدايات

مباشرة .. فقد طبق نظام التعددية الحزبية ورفرف علم الديمقراطية .
ولكن العلم انتكس عام ١٩٧٣ .. ورفعوا لافتات الحزب الواحد ..
وأفراط « فتيان الثروة » فى الكلام عن الوحدة والتوحد دفاعاً عن
إنجازات وهمية على الورق ! ولم يجادلهم أحد كثيراً .. ذلك أن خيال
المائة كان ينذر الجميع بسوء العواقب ... ويا طيور الحرية أغربى عن
وجه حكماء الحزب الواحد فإنهم يثرثرون !

الفردوس المفقود .. لم يعثر عليه حكماء الثروة طوال رحلتهم الطويلة
فى سراديب الحكم المطلق ... ولم يقزعوا عندما وطأت أقدامهم الجوعى
فى الطرقات .. الموقف جد خطير ولكن فتيان الثروة يستعصى عليهم
فهم الواقع المنزع فى زمن المجاعة الأفريقية ! يكفيهم إنجازا أن لافتات
الحزب الواحد لا تزال معلقة على جدران ٣٨ دولة من ٤٥ دولة فى
إفريقيا جنوبى الصحراء !!

حتى عندما بدأ الزمن يتغير بانهيار نظم الحزب الواحد فى أوروبا
الشرقية .. قال أحد الحكماء مستكراً « إنها الديمقراطية اللعينة بدعة
هذا الموسم » ! وقال حكيم آخر « إن المنادين بالديمقراطية مجرد فئران
مذعورة » !! غير أن رياح الديمقراطية الصاخبة فى الشوارع الأفريقية
لم تبعأ بكلام الحكماء القدامى .. وأسقطت خيال المائة إلا قليلا !

ثم كان المشهد حزيناً .. عندما قذف دعاة الديمقراطية موكب
« كنيث كاوندا » منذ أيام بالحجارة والقمامة .. وذرفت صحيفته الرسمية
دموع أحبارها وهى تنشر ما حدث .

يا أيها المعلم القديم ... يشعر المرء بالأسى من أجلك .. لقد كانت
فامتك مديدة بقدر احتضانك لحركات التحرر الوطني .. وقد تحملت
كثيراً من أجل هذا الهدف النبيل .. ولكن ما العمل الآن ؟ ... إن زمن
حكماء الثروة في رواق سلطة الحزب الواحد ولى وانتهى .. ولم يبق
سوى فضيلة الاعتراف .. والرحيل .. وداعاً ! .

القناع .. والتماثيل !

كانت أمنية والده أن يرث ابنه فأسه . ويصبح فلاحًا مثله لكن الاقدار شاءت أن يصبح الفتى زعيمًا وطنيًا .. غير أنه تمسك بفأس أبيه .. لم يسقطه من يده .. كان هدفه أن يحرق أرض بلاده لتنبث أشجارًا وارفة الظلال للحرية والعدل .

عندما أكمل تعليمه .. أصبح مدرسًا . وانتقل من القرية إلى المدينة . هناك تشكل وجدانه الوطني . وصقلت التجارب أفكاره . وانخرط في صفوف حركة الاستقلال .. وحمل راية الوطن . لكنهم تأمروا عليه .. اغتالوه عام ١٩٦١ .. عندئذ ذرفت إفريقيا قارة الفقراء الحالمين بالغد .. دموعها على أنبل الشهداء .

إنه « بياتريس لومومبا » بلده كانت الكونغو « زائير الآن » .. لكن إفريقيا كلها كانت وطنه وموطنه .. فهو واحد من رواد الحرية .. أبطال الموجة الأولى العاتية لاستقلال القارة .

القارة السوداء .. عندما نفضت عن كاهلها غبار الاستعمار .. تعثرت مسيرتها في أوحال الطغاة . كان قدرها كصفتها .. مأساة مروعة يوجز بشاعتها « منجستو » آخر الطغاة الهارين . لقد حكم أثيوبيا أربعة عشر عامًا .. لم يشيد خلالها جسرًا .. وإنما هدم كل جسور الوطن .. حتى تمزقت أوصاله ..

« منجستو » لم يقرأ تراث « لومومبا » .. لم يتعلم فى محراب الوطن .
لقد انكفأ على ذاته الموحشة - لا يرى غير أطماعه - كان يحتسى وراء
أسوار القصر بشعارات زائفة ومزيفة .. يحلو له رؤية الأسود الحبيسة
فى أقفاصها الحديدية .. هواية وحشية ورثها من سلفه الامبراطور
هياسلاسى الذى أطاحوا بحكمه فى انقلاب عسكري عام ١٩٧٤ .

عندما سقط نظام الإمبراطور القديم .. لم يقفز منجستو إلى
كرسى السلطة .. تريت حتى يقضى أولاً على كل الرفاق .. كان
المشهد دائماً عام ١٩٧٧ عندما أطلق عليهم الرصاص خلال اجتماعه
معه . ووثب وحده على عرش الإمبراطور .. لكنه لم يجاهر
بأطماعه .. بل وضع عليها قناعاً سوفيتى الصنع .. وحتى تنطلي
الخدعة أقام تماثيل ماركس وانجلز ولينين فى كل مكان .. حتى
يحصل على « صدقات » موسكو !

لكن الدنيا تغيرت فجأة .. لقد بدأ زمن جورباتشوف عام ١٩٨٥ ..
هبّت رياح الحرية .. قوضت سور برلين عام ١٩٨٩ ، عندئذ ساورت
الهواجس منجستو .. خاصة بعد أن أوقفت موسكو مساعدتها له . بادر
بتحطيم التماثيل القديمة .. وغير جلده السياسى كالحرباء .

ظل طوال عامين يتقن فنون الحرباء .. لكنها خذلته ، عندما ضيق
عليه الثوار الخناق .. واستشرت المجاعة فى البلاد .. هرب إلى مزرعته
فى زيمبابوى .. وهو يمنى النفس بالانتقال إلى فيلا أنيقة يمتلكها فى
جنيف .

« لومومبا » .. القلب يفيض بالآلام والأحزان .. ولكن لا تيأس ..
قارتك العذراء لم يمسه الطغاة خصلة من شعرها رغم شراستهم ..
الحلم الوطني لا ينطفىء بريقه المتوهج مهما طمرت أحوال منجستو وزمنه
المقيت الرديء .

رأس .. الأفعى !

كان الظلام يعم المدينة عندما اقتربت الطائرة من مشارفها .. وعندما حلقت فوق أرض مطارها .. تلقى قائدها انذاراً بعدم الهبوط .. وأطفأوا أنوار المطار .. فاستدارت الطائرة لتعود من حيث أتت .. كان على متنها زعيم إفريقي كبير .. اشتعلت فى بلاده نيران مؤامرة شيطانية بعد خمسة أيام فقط من حصولها على الاستقلال عام ١٩٦٠ .. لم يكن هارباً يسعى لطلب اللجوء السياسى .. وإنما كان مثالياً وجسوراً يريد وحده اقحام الاقليم الذى أعلن الانفصال فى اليوم الحادى عشر للاستقلال ! .. لكن الأعداء تربصوا به .. حاصروه .. اغتالوه .. أصبح أسطورة إفريقية إنه : « ياتريس لوموبا » ..

كان أول رئيس لوزراء الكونغو « زائير الآن » .. روعت وقائع اغتياله فيلسوف فرنسا العظيم .. « جان بول سارتر » .. فكذب عنه دراسة ضافية قال فيها : « الأمم الإفريقية تكتشف قدرها فى الكونغو » .. وأكد أن « موبوتو » اختطف السلطة وأجهض الحلم الإفريقى .. قال ذلك قبل أن يمتطى « الشاويش » صهوة بلاده رسمياً عام ١٩٦٥ - كأن سارتر كان يرى بعين التاريخ وحكمته المستقبل المظلم الذى ستؤول إليه زائير بعد ٢٦ عاماً من حكم الفرد المطلق .

« موبوتو » .. لم يكن وحده الذى خنق الحلم .. شاطره فى ذلك كل « حكماء » الزمن الإفريقى الأسود .. قالوا وهم يقرأون من كتاب

الاستبداد .. باسم « فضيلة » الوحدة والتنمية .. الحزب الواحد يعصمكم من الفقر والخوف .. وسجنوا خلف قضبانه الكلمات .. وتفرغوا لجمع الثروات ..

وهم فى طريقهم لإقامة تماثيل زمن البؤس .. قال حكيم فى السنغال عام ١٩٦٢ .. « لا يمكن أن يسبح تمساحان فى مياه خليج واحد » ! .. تلقف الطغاة شعاره .. زينوا به جدران الحزب الواحد .. إفريقيا تزدد فقراً وقهراً ..

رجل صالح .. استبد به الفرع .. قال فى حسم وغضب لمن حوله : اضربوا رأس الأفعى حتى تبرأ البلاد من الغمة .. الحزب الواحد أصل البلاء وأس الشقاء .. هذا ما حذر منه الزعيم الأفريقى « جوشوا نكومو » أقرانه فى زيمبابوى منذ سنوات خلت .. لكن كلماته ذهبت أدراج الريح وذهب هو معها .

ومرت السنوات .. وتدفقت معها مياه كثيرة فى مياه نهر الكونغو حيث يخت موبوتو .. الذى يعتصم به بعيداً عن شغب المدينة .. وعندما شعر بأن رياح الغضب تكاد أن تعصف به ظن أن فى وسعه أن يحتال عليها .. فساعد ومول تشكيل مائة حزب سياسى جديد .. حتى تفرق البلاد فى متاهات الصخب السياسى .

ولما أيقن الناس من الخدعة .. قالوا إن الحرية الوحيدة التى نمارسها هى شراء رباط عنق « كرافتة » .. فقد كان موبوتو قد حرّمها وجرمها

تحت دعوى « الأصالة » .. حتى حماه نظامه تدمروا وتمردوا .. ودمروا
العاصمة وضواحيها .. كانوا يبحثون عن فتات الخبز .

« جان بول سارتر » .. يامن ذرفت دموع كلماتك وأفكارك على
انطفاء الحلم الأفريقى فى لحظة توهجه الأولى .. لتكابد افريقيا طوال
ثلاثين عامًا من الظلمات والظفاعة .. رأس الأفعى لن يقلت .. لن يعصمه
يخت الطغيان من الطوفان .

الصقر .. والعرش !!

كانت ليلة موحشة .. لم يستطع أن ينام طوال ساعاتها الطويلة والكثيرة .. فقد استبد به الأرق واعتصره القلق واقتصرته الهواجس .. بدا أن حياته تفر منه ، وأن مستقبله معتم .. وفجأة قفز من فراشه وخرج إلى الطرقات .. تعلقت عيناه بالقمر .. وقال لنفسه وكأنه يولد من جديد .. « لا أريد سوى الحرية » .

هذه قصة قصيرة للكاتب الكيني المبدع « جيمس نجوجي » .. لعل سطورها تصور الحلم الإفريقي الذي لم يتحقق في بلاده منذ استقلالها عام ١٩٦٣ .. الحلم الذي تحول إلى كابوس مروع .. هذا ما أكدته أحدث ليلة السبت الماضى .

في تلك الليلة كان رجل كيني عجوز فى الثمانين من عمره يرقد فى فراشه .. عندما اقتحموا منزله .. وانتزعوه « بيجامته » إلى قسم الشرطة .. اتهموه بالدعوة إلى الديمقراطية .. قال لهم فى تحد .. نعم هذا صحيح .. لم يخش سطوتهم ولا غلظتهم .. إنه المناضل الكيني أودينجا .

حراس نظام الحزب الواحد يترصدون بهراواتهم خطواته منذ زمن بعيد .. اعتقلوه فى السنة السادسة للاستقلال .. وقتها كان الحاكم بأمره زعيماً تحيط به هالات السلطة هو « جومو كينياتا » .. لكنه كان يخاصم الديمقراطية ويمقت الحرية .. قال لمن يعنيه الأمر .. « إننى صقر أحلق فى السماء حتى أنقض على فريستى » .

شراسة الصقر لم تخدم حركة الديمقراطية الوليدة .. اغتيال أعوانه عام ١٩٧٥ زعيما بارزا هو جوشيا كيروكي .. لأنه حذر مواطنيه من سرطان الفساد .. « جوشيا » .. كان مناضلا قاتل في الأحرار في صفوف حركة التحرر الوطني حتى نالت كينيا استقلالها .. لم يقلده الأب العجوز وساما وإنما رشق في قلبه رصاصة الموت !

الموقف هناك لم يتغير رغم مرور ١٥ عاما على اغتيال جوشيا .. لقد اغتالوا هذه المرة وزير خارجيتهم « روبرت أوكو » لأنه تجاسر على كشف الفساد والتصدى للمفسدين .. أكد محقق بريطاني محايد أن وزيرين كينيين ضالعان في الجريمة .. سلطة الحزب الواحد تختزل الآن في معنى مفجع .. هي « مافيا » تقتات على الفساد وتعربد في ظلمات الديكتاتورية .

« دانيال آراب موى » .. لا يزال يلوح بسيف سلفه كينياتا ويقول « فتران الديمقراطية سوف اسحقها » ! لم يثنه عن شططه أن « كينيث كاوندا » الأب القديم لزامبيا طوال ٢٧ عاما قد غادر مسرحها السياسى مكرها لا بطلا .. كان حتى آخر لحظة من عمره السياسى يتمسك بالعرش ويحذر من طوفان الدم من بعده .. لكن أحدا لم يذرف عليه أى دمة في صناديق الاقتراع ..

لا معنى الآن للأساطير القديمة الزائفة .. آباء الزمن الأفريقى كانوا غلاظ القلب .. تعلقت أفئدتهم بعرش السلطة .. لم ترعجهم إحصائيات الفقر والموت جوعا .. أغلقوا نوافذهم حتى لا تورقهم أنشودة طائر الحرية .. لن يفلت أقرانهم مهما كانت أسنة رماحهم طويلة .

الممثل .. والمرتقة !

ذات صباح ، منذ زمن بعيد ، قرر شاب مغامر مولع بالشهرة ، أن يهجر خطيبته الجميلة . ويرحل إلى بلاد بعيدة مجهولة . كان يسمى لاكتشاف لغز نهر النيل ووسط إفريقيا ، وأن يكون « مرشدًا » للغزو الأوروبي للقارة .

ولأنه كان بلا قلب ، فلم يحزن عندما عاد من رحلته ليجد في انتظاره رسالة من خطيبته القديمة تقول فيها : لك الشهرة وحكك . أما أنا فقد تزوجت .

هذا الشاب المغامر « هنرى ستانلى » هو « الأب الروحى » لأجيال من القتلة المأجورين الذين عرفوا فى أفريقيا وآسيا بالمرتقة الأوروبيين . ومثيرة جدًا حكايتهم الأخيرة التى استمرت ١٤ عاما حكم خلالها ثلاثون منهم بلدًا أفريقيا هو : جزر القمر .

فبعد ثلاثة أسابيع من استقلال الجزر من فرنسا . وتولى أحمد عبد الله الرئاسة ، وصل إلى الجزر مرتزق فرنسى هو « بوب دينار » ومعه ثلاثون من أعوانه . وأقالوا عبد الله ونصبوا رجلا غريب الأطوار اسمه على صويلح رئيسا .

ولكن « على » أمر ذات يوم جنوده بقتل كل الكلاب لأنه رأى فى منامه أن كلبًا ينهش لحمه حتى الموت ! عندئذ غضب عليه المرتزق

دينار « الحاكم الفعلى . وأقاله . وأعاد عبد الله من منفاه ليمثل دور الحاكم لمدة ١١ عاما .

و ذات صباح منذ ثلاثة أسابيع اقتحم أحد المرتزقة غرفة نوم عبد الله . قتله . وتولى « دينار » حكم الجزر .

ليس هذا خيالا . ولكنه حقائق مروعة .. لم يسدل الستار عليها لا منذ أيام عندما ضغطت فرنسا على المرتزقة الثلاثين فرحلوا من الجزر توجه دينار إلى جنوب إفريقيا التى كانت تساعدته خلال سنوات حكمه !!

عندما قرأ ممثل أمريكى شهير هو كلينت ايستود مغامرات المرتزق دينار « تعاقد على أن يمثل حياته فى فيلم . والمشكلة أن الفيلم مهما كانت براعة مخرجه . ومهارة ممثليه لن يكون أكثر إثارة مما حدث فى بلد تعرض لمؤامرة شيطانية حاصرته فى دائرة الجغرافيا ، وعزلته عن حركة التاريخ .

اغتيال طاغية

منذ كان طفلاً صغيراً ، وهو يعمل لكسب قوت يومه ، كان يتمر لأسرة فقيرة ، لكن والده أصر على أن يعلمه ، ولم يخله الفتى ، فـ كان عبيداً وذكيا . وأصبح مدرسا للتاريخ . لكن طموحه كان عظيماً فشد الرحال إلى بريطانيا . ومن جامعاتها حصل على درجة علمية وتشكل وجدانه الثقافي ، ورؤيته الاجتماعية من خلال تأثره بكتابات الاشتراكيين « الفايين » عن العدل والحرية . كما أصبح الزعيم الهند العظيم غاندى ملهماً لطموحاته النبيلة .

عندما عاد إلى بلاده ، لم ينضم للصفوة المترفة ، وكان يمكنه أن يكون أحد نجومها الساطعة ، لكنه نزل إلى الشارع السيلسى ليقود حركة تحر بلاده من الاستعمار ، والقهر وعندما حصلت بلاده على استقلالها ، أصبح أول رئيس لها ، وظل حاكمها لمدة ٢٤ عامًا ، لكنه قاوم إغراءات السلطة وغواياتها وعندما استقال ليفسح المجال للقيادات الشابة ، كان لا يزال يعيش فى ذات المنزل المتواضع الذى كان يقطن فيه قبل توليه السلطة إنه « جوليوس نيريرى » رئيس تنزانيا السابق . والمع أبناء الوطن الإفريقى . ويذكر له التاريخ أنه أسهم فى انقضاء طاغية هو « عيد: أمين » من فوق عرشه فى أوغندا .

لكن طاغية آخر اقتنص السلطة فى بلد إفريقى آخر هو « ليبيريا بينما كان نيريرى يتأهب لترك الحكم طواعية واختياراً .

الطاغية الجديد ، الذى فاقت شهرته الدامية الآفاق ، هو « صامويل و » . كان مجرد « شاويش » فى الجيش ، لم يكمل تعليمه الثانوى . لذلك كان حواراه مع أبناء الوطن بالطلقات وليس بالكلمات .

استهل الطاغية تاريخه الأسود بمشهد عنيف وغريب . جرد كل وزراء الحكومة السابقين من ملابسهم وساقهم عرايا فى شوارع العاصمة حتى الشاطئ ! وهناك أطلق عليهم الرصاص . بعدها نصب نفسه قائداً لجيش ، ثم رئيساً للدولة ، بعد انتخابات مزورة .

كان من الطبيعى أن يتفشى الفساد والإفساد فى ليبيريا .. ومن بوابة فساد ، هرب ذات يوم من عام ١٩٨٣ أقرب مستشارى الطاغية بعد سرق ٩٠ ألف دولار .. لكن اللص ، بعد أن نفذت أمواله ، عاد مع بداية عام ١٩٩٠ ليشن حرباً أهلية قبلية ضد صديقه القديم ، ووسط صراع اغتالوا « دو » .

لم يذرف عليه أحد دمة حزن أو رثاء وما كان ينبغي لأحد أن يبكى على اغتيال طاغية .. أفرخ نظامه طغاة آخرين يتصارعون الآن على سلطة ، رغم أن البلاد أصبحت مجرد أطلال ..

أفريقيا .. يا قارة أقرها الطغيان ، وأتعمس شعوبها .. لا عاصم لكم يوم ، أو لغيركم سوى الديمقراطية ، طريقكم إليها صعب وعسير ، لكن لا سبيل آخر للحرية والعدل . وعليكم أن تختاروا .

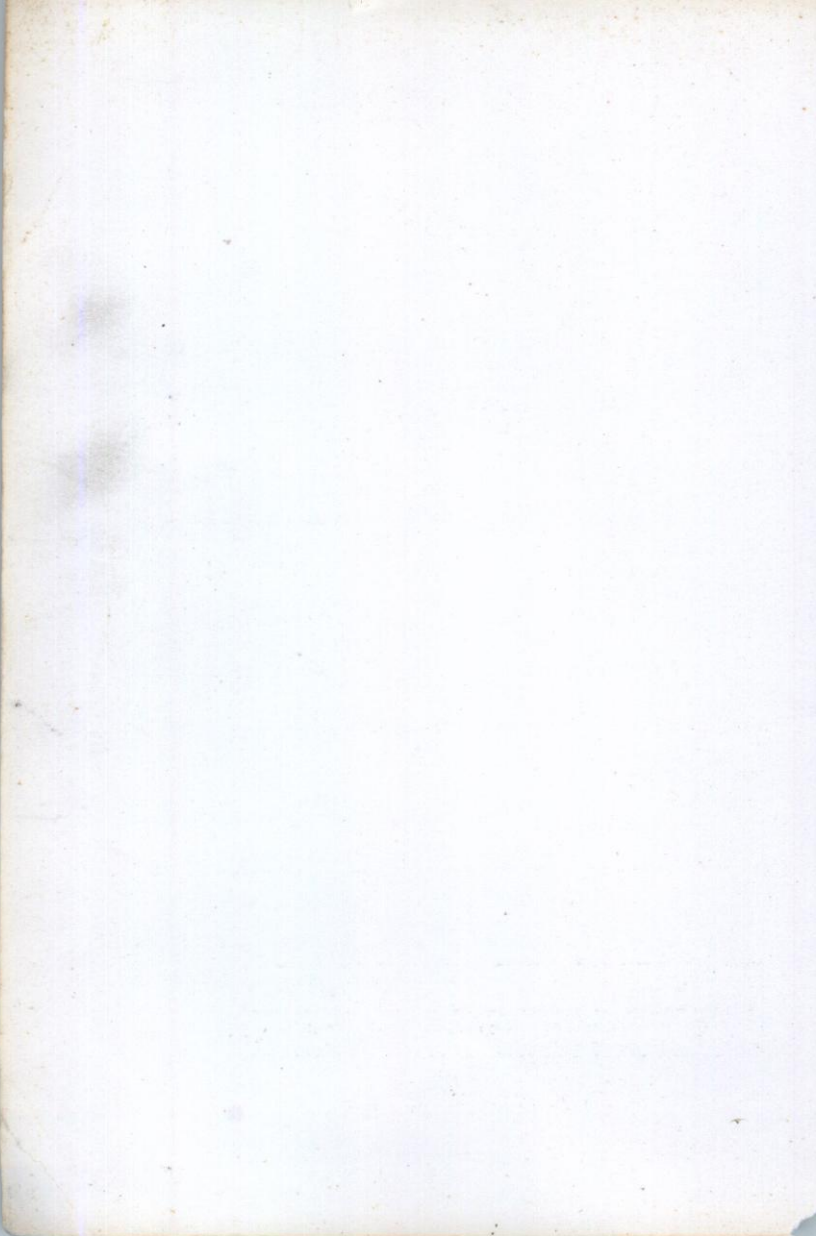
فهرس

الصفحة	الموضوع
٥	الإهداء
٧	مقدمة : مشاهد من زمن التحولات الكبرى
١٣	١ - رفاة .. يقول لكم
٤٤	٢ - دموع الفيلسوف .. والمشهد الأخير
٥٧	٣ - شموع الحرية .. وحكمة « السوبر مازكت »
٧٤	٤ - الفتى الأحق .. وصمت إسماعيل
٨٥	٥ - أسطورة الماضي الجميل .. ولحظة العناق
٩٦	٦ - التاريخ .. فى سيارة مرسيدس
١٠٥	٧ - الحرية وأخواتها
٢٥	٨ - خيال المآنة .. ورأس الأفعى

١٩٩٣ / ٤٨١٨	رقم الإيداع
ISBN 977-02-4090-7	الترقيم الدولى

١ / ٩٢ / ٢٣٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



تصميم
الغلاف
منال
بلبران

رفاعة الطهطاوى (رافع راية النهضة
الفكرية الحديثة)
عبد الرحمن الكواكبي (المفكر العربى
الكبير)
عبد القادر الجزائرى (الأب الروحى
للجزائر الحديثة)
عز الدين القاسم (بطل الثورة
الفلسطينية)
فولتير - برنارد شو - دانتى -
الجبرتى - عبد الله النديم ..
كارل ماركس - فيدل كاسترو ...
● هؤلاء رفعوا أعلام الحرية للقضاء
على الديكتاتورية والظلم السياسى ..

● حكا
فى
خلا
أجله

٤٠٦٢٨٤/٠١-٠٠٠٠٣٠٠



الحرية وأخواتها